زوجتك نفسي

عصام عبد الحميد

زوجتك نفسي / قصص

عصام عبد الحميد

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩

OKTOB NET

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة , ١ش المعهد الديني ، المرج

هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧

موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

حاتم عرفة

تصحيح لغوي :

سعيد الجزار

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/١٣٠٠٥

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٢١١- ٣

زوجتك نفسي

قصص

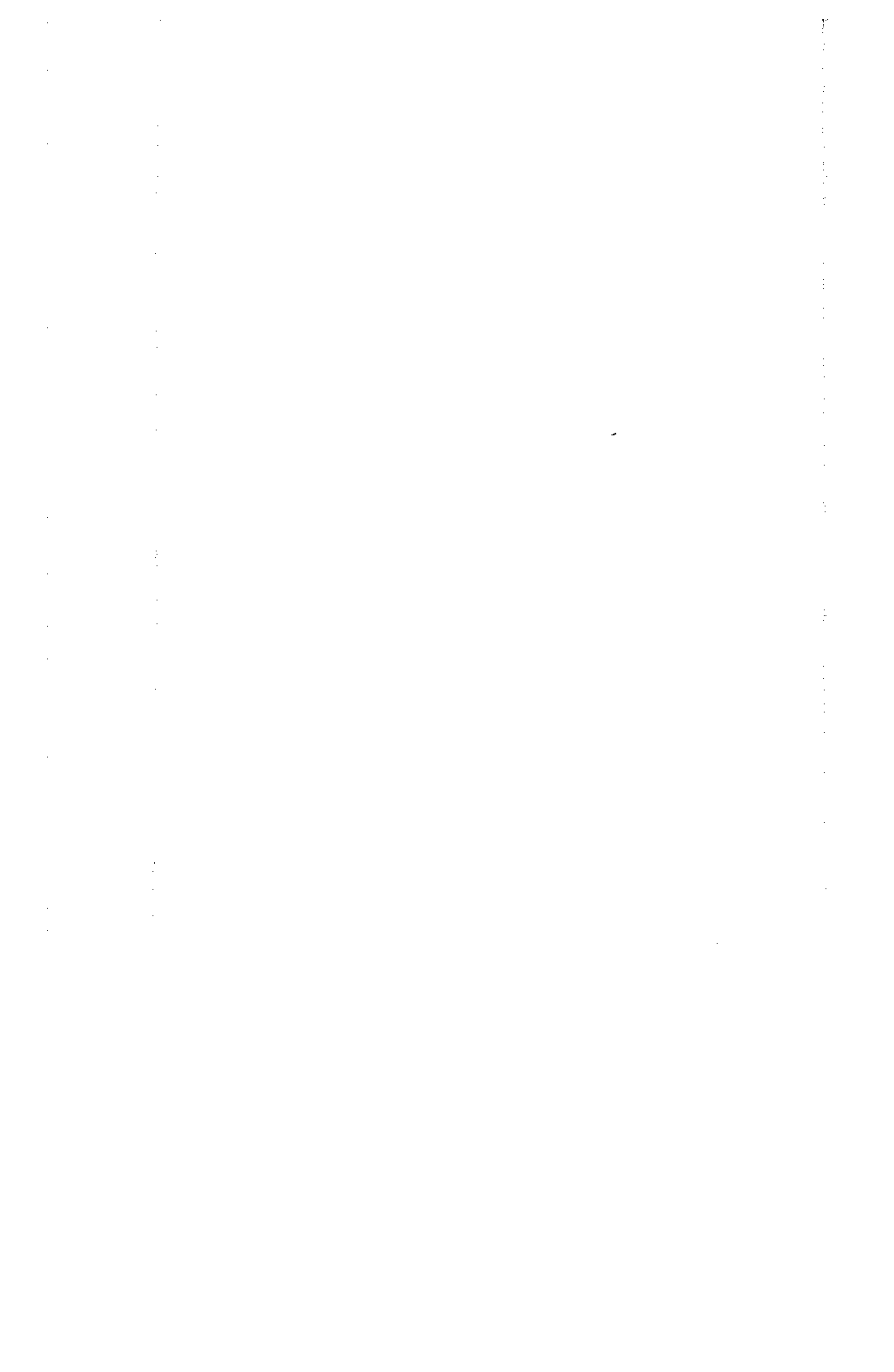
عصام عبد الحميد

الطبعة الأولى

٢٠٠٩



دار اكتب للنشر والتوزيع



إهداء

إلى الحبيب الغالي

عمى حمدي

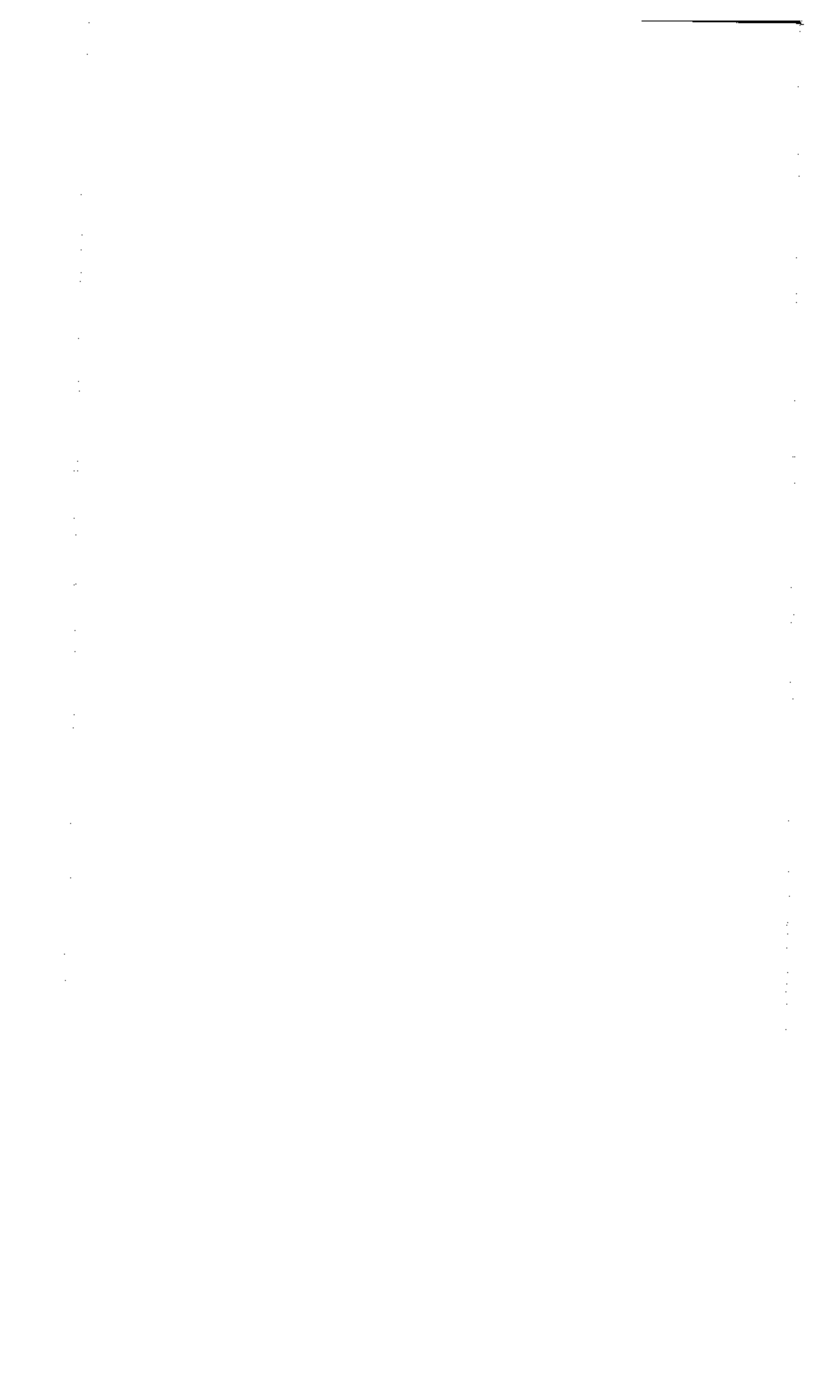
الذي افتقدناه ونحن أحوج ما نكون إليه

إلى الأب الذي عرفنا بعده طعم اليتم الحقيقي

ستبقى دائما في قلوبنا

الرمز الأروع للرجولة والأبوة

رحمك الله ورحمنا



تقديم

السفر في أعماق الألم

قراءة في المجموعة القصصية

(زوجتك نفسي) لعصام عبد الحميد

بقلم د/ خالد فهمي

كلية الآداب / جامعة المنوفية

توشك القصة القصيرة في هذا العصر أن تكـــون الوريـــث الشرعي لعدد من الأجناس الأدبية التقليدية, توشك أن تكـــون اللوحة التي تقفز إلى خيالاتنا في لحظة إغفاء تعيد شحن العقـــل والقلب معا؛ لتعيد إنعاش أجسامنا التي ينـــهكها الـــسعي في دروب الحياة, ومن ورائه إرواء غليل النفوس الحيرى! ونحن في كثير من الأحيان نسعد بأسر القصة القصيرة لنفوسنا بسبب من طبيعة الزمن الذي صبغ فيه نفوسنا بتعجل الحصول علـــى مـــا يسكن قلقها؛ ربما بسبب ما نسميه عصر المعرفـــة الـــسريعة؛ فبنقرة على جهاز تنساب المعلومات انسيابا, وهو الأمر الـــذي ربما يرشح القصة القصيرة لمستقبل مطرد في التنامي والـــسيطرة والتقدم في قوائم الأجناس الأدبية.

ولقد تجمع لمجموعة عصام عبد الحميد (زوجتك نفسي) عدد من الحيثيات التي مكنتها من أسر المتلقي, وجذبه, والسيطرة عليه, وتغذيته.

في مجموعة (زوجتك نفسي) سفر في أعماق الألم الإنساني, وفيها توق جارف نحو الحصول على سكون النفس والجسد, وفيها وعي حقيقي بمكنون النفس الإنسانية, وما تنطوي عليه من بقايا فطرة نقية بالإمكان استثمارها واستنفار همتها, بعدما شوهتها ونال من براءتها فساد تراكم, وانحراف تفشى.

في مجموعة (زوجتك نفسي) إحساس متدفق بمخاطر التوتر الجسدي وانعكاسات هذا التوتر على قلق الروح, وهو بعض الذي يفسر ظهور معجم الشتاء والبرودة وثقل الليالي الطويلة بعيدا عما يبعث الدفء في الأجساد والنفوس, وعصام عبد الحميد واع بطريق التخلص من قلق الروح, وعذابات النفس, واع بأن الإنسان معجون روحي طامح إلى السكينة والجلال ولكن عبر بوابة الجسد أيضا, وهو ما تجلى في زيادة اللجوء إلى الزواج بما هو الطريق الفطري لاستقرار النفس وراحة البال, وهدوء الخاطر والجنان, ولأن الزواج التقاء نفس انشطرت قديما لقد التقى رجال ونساء في قصص هذه المجموعة فكان القلق باديا ومزلزلا للنفس عندما يكون الاقتراب في أجواء غير فطرية ولا طبيعية، لقد استطاع عصام عبد الحميد أن يقنعنا بأن السكينة الروحية حصاد زوج بزوجه حتى غدت مجموعته

في إحدى أوجه تأويلها ترجمة واضحة للمعنى القرآني الكامن في قوله تعالى : **(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها و جعل بينكم مودة و رحمة)**.

هذا الوعي بما للجسد من أثر في عذابات النفس, وأفراحها بدا مقنعا جدا في (زوجتك نفسي), في هزة الروح العفيفة على إثر اللقاء الذي لا يرضاه الله، (وفي رائحة رجل) التي تعكس الضعف الإنساني الظاهر من خلف الحرمان مما فطر الله الناس عليه.

أما من الناحية الفنية فلقد استطاع عصام عبد الحميد أن يوظف عددا من التقنيات التي ارتقت بقصص المجموعة ولعل أهم هذه التقنيات هي : تقنية الحوار، كما يظهر في غير ما قصة، ولاسيما في (انتظار) وسواء أكان الحوار خارجيا بين شخوص قصصه أوكان داخليا (مونولوج) بين شخصية ونفسها فقد كان إحدى الوسائل الفنية التي استثمرت للتخلص من عذابات الروح التي قد يكون سببها الوحدة، وهو أمر غير فطري يعرض للإنسانية، فنجدها ضد طبيعتها مما يورثها الألم والعذاب، ومن ثمة كان الحوار واهبا للقضية ملمحا إنسانيا يرمي إلى التخلص من عذابات الوحدة.

كما لجأ عصام عبد الحميد إلى تقنية بارزة وهي بناء كثير من قصصه اعتمادا على توظيف قصص أقصر، ولنتأمل كيف بنى (رائحة رجل) وهي من أهم قصص المجموعة في تصوري، فقد شكلها بعدد من القصص القصيرة الداخلية، وهي تستعرض قصص زميلاتها في العمل في لحظة بحث عن الانعتاق من الألم التي تولدت من انكسار زوج بفعل فساد طاغ سكن جهات الأمن, فأسهمت قصص الزميلة المطلقة والأرملة في بناء القصة الأساسي. وثمة استثمار لشعرية اللغة بل للتناص فيها في (كانوا يشيرون بالإجابة) وهو ما اقترب بعصام عبد الحميد لأن يحقق أمرا عجيبا أن يكون واقعيا في قصصه ونماذجه، رومانسيا في معالجته ولغته وبناء وحدات مجموعته.

و على طريق التناص بدا عصام عبد الحميد موفقا في استدعاءاته و تناصاته مع نماذج معاصرة قارة في الوعي الجمعي, ومن الميسور استدعاؤها من مثل توظيفه لعنوان (لقاء هناك) لثروت أباظة، ولشخصية العندليب بما تراكم حولها من أنها ترجمة لمشاعر الحب في نسخته المعاصرة عند المراهقين، حاول عصام أن يعيش اللحظة المعاصرة بمفردات ثقافتها موجها ومتدخلا بفنية موفقة ليحقق تواصلا.

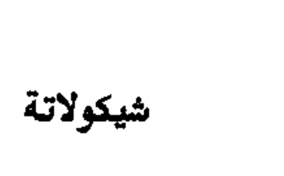
و يظل عصم عبد الحميد واحدا من قلائل استطاع أن يدخل إلى عالمه القصصي من بوابة المرأة، حتى غدا واحدا من أهم المؤهلين للتعامل بوعي مع سيكولوجية المرأة، وهو ما يحمله عبء تكوين نفسه علميا في هذا الميدان .

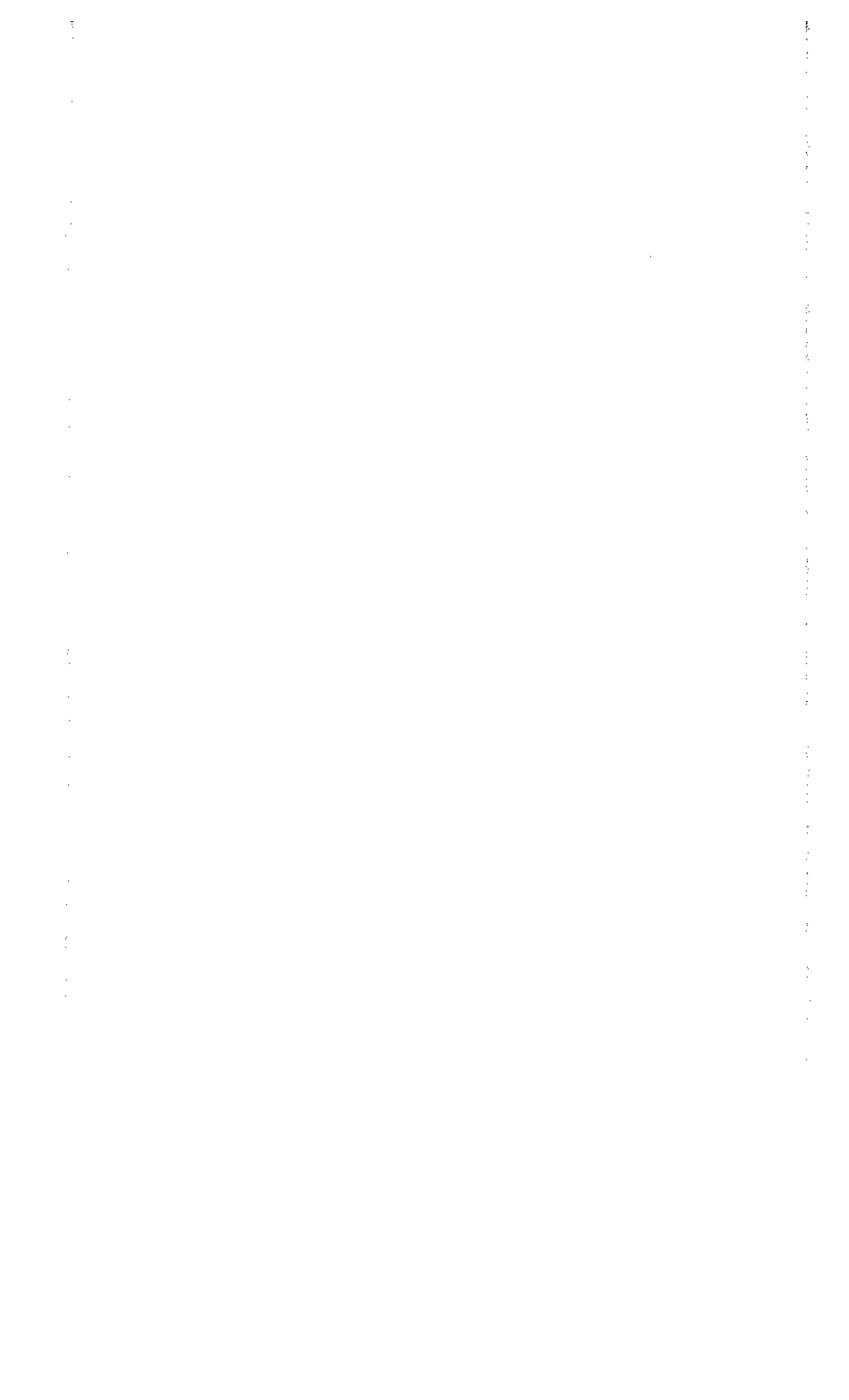
لقد ظهرت المرأة بما هي مسرح للضعف، وبما هي أعلى صورة تتبدى عليها ملامح القلق، والتوزع النفسي، وعذابات الروح، والتمزق بسبب من آلام الواقع وضغوط الأعراف، لقد ظهرت المرأة زوجا (و هو النموذج المتكرر المتفشي)، باعتباره طريقا لتحقيق السكينة، وظهرت الأم, والجدة، والبنت، والعاملة، وهي في كل مواقعها تجسد الوعي الحقيقي بمعاناة الإنسان في أروع صورها.

حاول عصام عبد الحميد ووفق إلى حد بعيد أن يصور لنا اضطراب النفس وقلق الروح بسبب من مجافاتها للفطرة الإلهية التي فطر الناس عليها، ولقد قدم من البراهين والنماذج القصصية ما كان مقنعا للنفس والعقل معا فإن الطريق المستقيم لسكن النفس هو طريق الفطرة التي لم يلوثها شيء من مجون العالم المعاصر.

لقد أقنعنا بقيمة البعد عن طريق السفور في زوجتك نفسي، وهو يهزنا هزا للتعاطف مع البنت التي وقعت بالدم على رجل فقد ضميره ختال وخدع و وقع بالدم و لكن في الاتجاه المعاكس.

في مجموعة عصام عبد الحميد (برنامج إرشادي) بتقنية فنية و لغة شعرية ترعى دستور القصة القصيرة وتنبئ عن صــوت مبدع بحق يعي المخاطر التي تحيط بالنفس الإنسانية في اشتباكها مع واقع معاصر دخل عليها فا أفسد فطرتها كـــثيرا، وصـــنع معاناة مستمرة تنهش الروح، و تغتال الجمال الـــذي يعكـــس الفطرة النقية. ولا سبيل إلى استعادة هذا الجلال و الجمـــال و السكون إلا عن طريق استبقاء دستور الفطرة الربانية في نفوس البشر.


شيكولاتة



جاءني صوتها المقتحم.. الواضح الحـــروف كشخـــصيتها مرحبًا بى سعيدًا كعادته عند سماع صوتي, فخفق قلبي خفقـــة حميمة لتلك السعادة التى نتبادلها كلما تحادثنا عبر الهاتف.

- أمازلت تصلين الجمعة فى القائد إبراهيم؟

شعرت بابتسامتها وهى ترد بفرح مدهش :

- سنلتقي هناك

ملأت جيوبي بأنواع جميلة من الشيكولاتة التى تعـــشقها, ومشيت أتخيل لقاءنا وكيف سأهديها قطع الشيكولاتة قطعـــة قطعة طول حديثنا الحميم؛ لأمنحها سعادة استثنائية.. كيـــف سأباغتها بجيوش الحب وأكسر هذا الجدار العازل الذى تعيش خلفه.. هذه المرأة لا يصلح معها الطرق المعتـــادة فى إعـــلان الحب.. امرأة تريد رجلا يقتحمها دفعة واحدة.. لا تحب تردد

البدايات وتكره لعثمة المقدمات.. امرأة لا تحب أن ترى الرجل أمامها ضعيفًا مترددًا.

ربما كنت الرجل الوحيد الذى فتحت له قلبها ومنحته مساحة واسعة للاقتراب من مشاعرها.. عشت فى هذه المساحة سنتين هما عمر علاقتنا.. كان شوقنا للقاء ودودًا دافئًا تظلله لهفة لا تخفى علينا, وإذا ماالتقينا نتبادل السلامات بود جميل ثم ننجرف فى أحاديث كثيرة عما فعله كل منا فى غياب الآخر نستمع لبعضنا باهتمام ونتبادل الآراء الناضجة فى المشكلات التى واجهتنا.. أما الحب فكان له حديث آخر لا علاقة له بالكلمات.. حديث نظرة دافئة عابرة.. لفتة حانية.. اتساع حدقة العين اهتمامًا بحديث الآخر.. خفقة قلب نتبادلها حين نتفق على معنى أو كلمة نقولها بشكل عفوي فى نفس اللحظة.. فنبتسم لمعنى واحد دار بخلدينا فى ذات اللحظة.. الشوق الجارف الذى نراه فى اللهفة على اللقاء.. والراحة الغامرة والأمان العام وإحساس بامتلاك الدنيا لمجرد تجاورنا فى المجلس.. أى مجلس. غير أنها لم تكن بنتًا عادية مثل كل البنات لها ألف طريق للوصول إلى قلبها بل كان الطريق إليها واحدًا.. مبادرة مباشرة وواضحة وقوية.. وذلك ما جعلني مترددًا فى كل الأوقات التى هممت أن أبادرها.. والغريب أنها صبرت كثيرًا فى انتظار مبادرتي كان صبرها جميلا مفعمًا بالأمل فى كل لقاء لنا أن أبادرها.

أخذت وقتًا طويلا حتى عصر الحب قلبي عصرًا.. فلم يعـد يطيق بعدها أبدًا فقررت كسر هذا التـردد واقتحـام تلـك القلاع.. ها هي اللحظة الفارقة قد شملتني.. حددت بوضـوح أول كلمة سأقولها حين تبادرني بتحيتها المبتسمة :

- تتزوجيني؟

ما أجمل عينيها حين تندهش! ما أروعها حـين يتحـول الاندهاش إلى ابتسام! ربما لا أعرف كيف أحـدد رد فعلـها ولكني أتصور أنني سأكبر في عينيها أكثر.. سنسير على البحر كما اعتدنا من مسجد القائد إبراهيم وحتى المنتزه ونعود سـيرًا دون أن نشعر بالزمن ولا التعب.. يكفينا هذه الفرحة العارمـة التي ستجتاحنا.

كانت الشمس ساطعة ففرشت جوًا من الدفء العام على الناس كسر حدة البرد الذى صاحب الإسكندرية في الليـل.. طال انتظاري وتصفحي للوجوه.. كنت أشعر بها وسط الناس وأنها ستفاجئني كعادتها فأراها مقبلة من حيـث لا أحتـسب بسمرتها الفاتنة فيخفق قلبي خفقته الحميمة لرؤيتها.

عند حديقة الخالدين وكشك الكتب الدينية وعلى شـريط الترام وفي كل الأماكن التي اعتدنا أن نتقابل عندها لم أجـدها ركبني الضيق قليلا, ولكن يقيني بقدومها أعـاد الفرحـة إلى نفسي.. حتى جاءني صوتها عبر الهاتف محملا بالاعتذار قائلة :

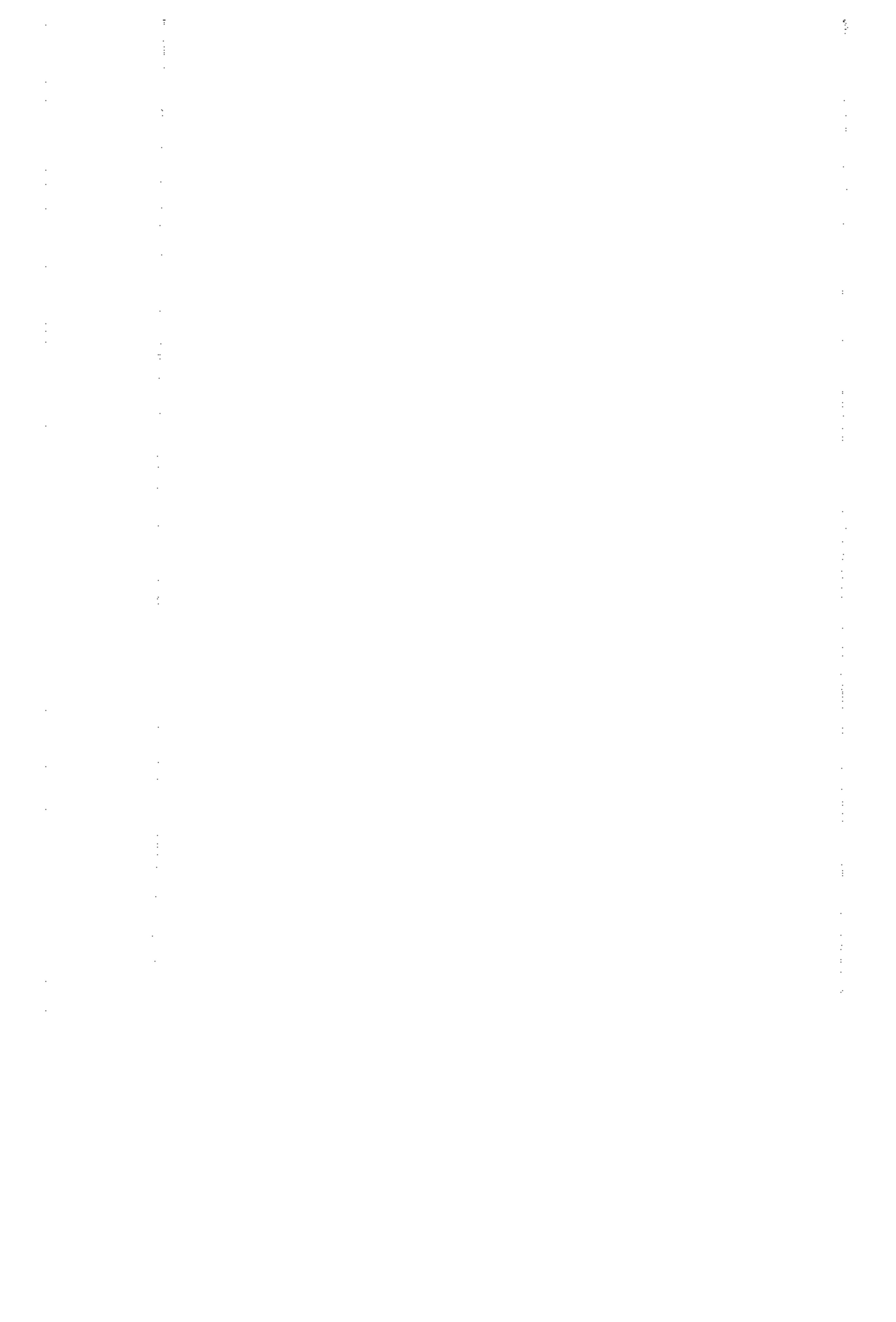
- جاءني موعد مفاجئ ومباغت وهام وجميل سيغير مجرى حياتي وجدته أهم من لقاءنا.

انغرست كلماتها كلمة كلمة في صدري حتى شعرت بوخزها.. فلم أرد فتداركت صمتي قائلة :

- سأتصل بك لن يمر اليوم حتى أحكي لك كل شيء ربما لن أستطيع أن أراك ولكن انتظر اتصالي.

تجولت طويلاً في شارع سعد زغلول غارقًا في الزحام بلا تفكير في شيء ما حتى تعبت.. حين تخلصت من كل قطع الشيكولاتة قررت العودة من حيث أتيت.

فـول بـالـقشـطة



دخلت الفراش بهدوء ساكن.. استلقيت ببطء شديد على ظهري كالمعتاد.. جذبت الغطاء حتى غطى جسدي كله إلى حدود أنفي.. أصدرت غطيطًا منتظمًا مصحوبًا بشخير خفيف تعودت عليه منذ سنوات بعيدة.. حين تقلبت شعرت يدها بوجودي ..فتحت عينيها قليلا قائلة : أنت هنا؟ ثم حركت جسدها نحوى حتى التصقت بي تمامًا.. مدت كفها إلى وجهي.. جذبته ناحيتها لتقبله.. دخلت في محيط أنفاسها الكريهة من أثر النوم.. طبعت قبلة على خدي أودعت فيها نداء أعرفه ولا أطيقه.. حركت وجهي ببطء إلى الناحية الأخرى؛ لأحرر أنفاسي المكتومة شوقًا لهواء متجدد.. منذ متى لم أعد أطيق نداءها؟ أحاول التذكر.. آه تذكرت.. منذ توقفت عن قطع ورقة النتيجة المصلوبة على جدار الحياة فتوقفت الأيام والأشواق وتشابهت بعده كل الليالي.. بدأت تحرك جسدها ببطء مبتعدة حتى خرجت من السرير متجهة إلى الحمام.. التفتت عيناى نحوها.. بدا لى جسدها من خلال النور الخافت القادم من خارج الغرفة جميلا بقوامة البضّ الذى لم يغيره الزمن.. مغرٍ حتى الإثارة.. ابتسمت بداخلي حين هزني

مشهد جسدها.. سألت نفسي.. هل مازلت تحـن إلى هـذا الجسد؟ فى غيابها القصير تمددت شرايين جسدي كلـه حـين راودتني أحلام ورؤى كثيرة لأيام خلت.. كانت كنهر مشتاق لحضن البحر.. عذبة متدفقة مندفعة.. عادت متثاقلـة بـنفس الشكل ونفس الرائحة؛ لتلتصق بي مجددًا.. انهـارت أوردتي فى لحظة.. انتظمت أنفاسي المدربة على هـذه التجربـة الليليـة المتكررة حتى يبدو لها أنني رحت فى سبات عميـق.. قالـت بصوت مبحوح : نمت؟ لم أرد.. زفرت بأنفاسها زفرة ضـيق وتبرم.. ابتعدت قائلة وقد علا صوتها : كل ليلة تأتى متأخرًا؛ لتنام فى لمح البصر ثم استدارت مولية لى ظهرها.. بهدوء وبطء تحركت نحو الاتجاه المخالف متمسكًا بأنفاسي المنتظمة خـشية أن تفضح استيقاظي المتناوم.

جلست أحتسى كوب الشاي الصباحي المعتـاد فى شـرفة المنزل و أطالع بشرود الجريدة وأرقب كل حركاتهـا الموحيـة بصباح عاصف.. كانت تدق بقدميها على الأرض حين تروح أو تجيء.. تضع الأشياء بصوت واضح.. تتحرك ذاهبة وآتية و هي تتنهد. .كنت أنتظر أن ينفد صبرها.. وحين نفد.. اقتربت حتى وقفت بجواري وبصوت خشن قالت : الفطور جـاهز.. ستأكل أم أن نفسك مسدودة كالعادة؟ التفت إليها مبتـسمًا وأنا أستنشق نفسًا عميقًا من هواء الشرفة الـصباحي قـائلا : وماذا أعددت للفطور؟ قالت هازئة : بيض أومليـت ومـربى بالقشطة وجبن فلامنك وعيش فرنساوى وعصير جريب فروت

فريش ينعش صباحك.. ابتسمت وأنا أسحب قدرًا كبيرًا مـــن هواء الشرفة لرئتي :

– شكرًا حبيبتي أظنه طبق الفول المعتاد..

قالت وقد غيرت وجهها من الاستهزاء للتحفز :

– نعم.. وماله الفول؟ أليس من نعم الله؟

قلت لها وأنا أسحب النفس العميق الثالـــث مـــن هـــواء الشرفة المتجدد :

– الحمد لله على نعمه.. ولكني كنت أقول من فضلك لـــو غيرت قليلا.. ما رأيك أن يكون طبق الفول اليـــوم مـــتغيرًا.. نضع عليه ملعقة قشطة.. ربما يفتح شهيتي للطعام بدل الطبـــق اليومي المتكرر. مللت منه.

وضعت يدها في وسطها وقد فهمت بوضوح ما أرمى له وقالت هازئة :

– فول بالقشطة؟ هكذا سيعجبك؟

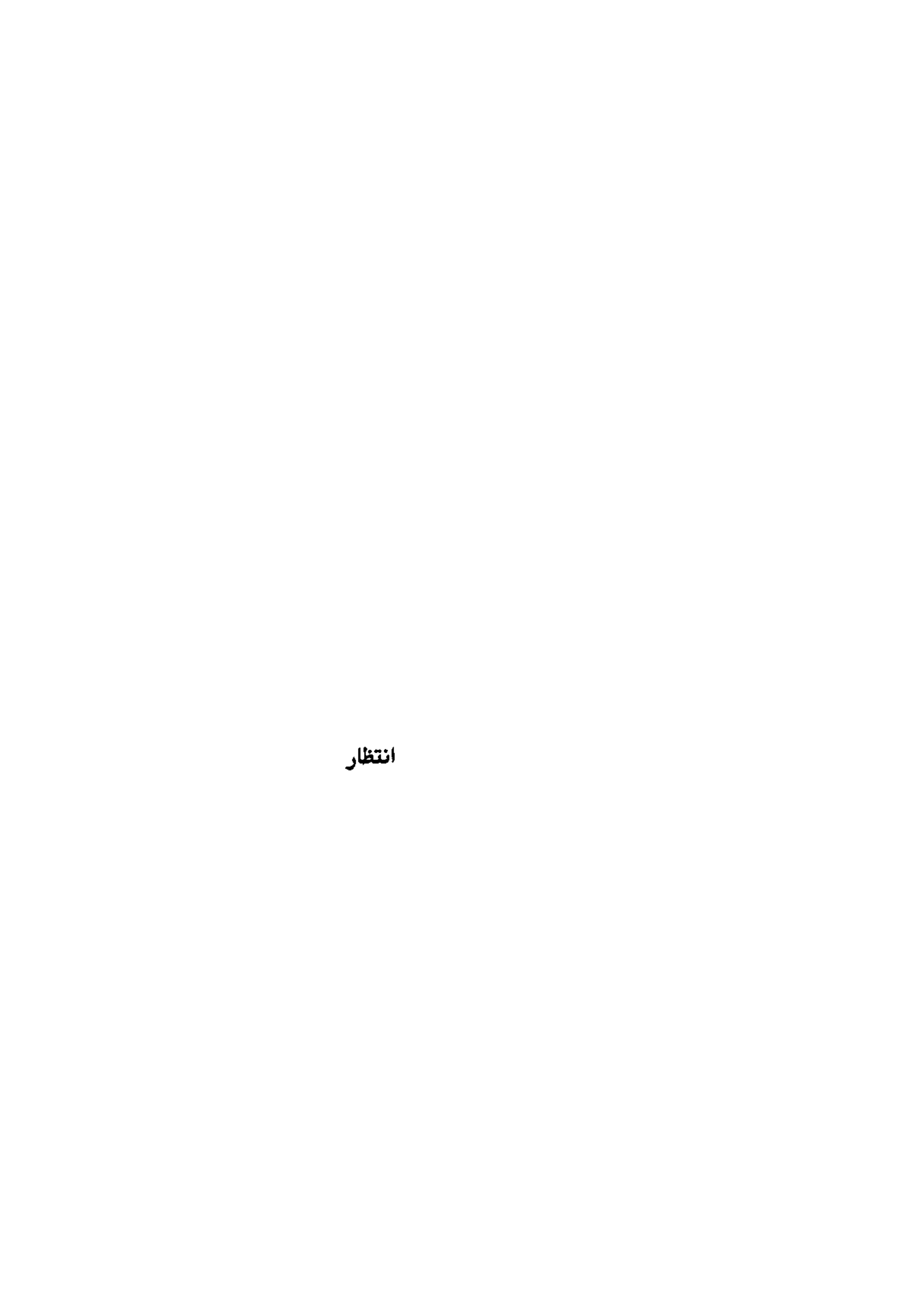
ثم ولت ظهرها وقالت :

– إذن لن تأكل حتى نغير الطبق المكرر.

ثم عادت للالتفات وقد بدا وجهها متحديًا قائلة :

– ما رأيك لن أغيره. إن كان يعجبك, الطعام موجـــود. وإن لم يعجبك أنت حر. غيرك يتمنى.

ثم ولتني ظهرها وهى تكمل كلامًا لم أعد أسمعــه. عــدت للشرفة أتنفس بعمق نفسًا جديدًا نقيًّا أملأ به رئتي.



انتظار



- تتزوجيني؟

تطلعت إليّ صامتة مندهشة أو متفاجئة ثم بنفس قوة السؤال: أوافق

حين لاحت الفرحة فى عيني تداركتها :

أوافق بشرط ألا يحتل عالمي.

وما عالمك؟

- عالمي الذى حققت فيه ذاتي وكبر عليه كياني وتكون لحياتي معنى خاص من القوة والثقة فصارت له ارتباطاته وقوانينه حتى صار من الصعب بل المستحيل التخلي عنه.

قلت بحدة :

- أليس هذا العالم الجميل هو الذي قتل أمانيك وسرق أحلى سنين عمرك.

بغضب جارف :

- وأنت جئت لتنقذ سنين عمري من الضياع فتحررني من عالمي الخاص إلى عالمك الخاص فأدور فى فلكه وجاذبيته وأتحول لكائن بلا معنى ولا روح.

بصوت هادئ أسيف :

- أنا ليس لى عالم خاص أضعت سنين عمري فى البحث عنه.

ثم برجاء :

- عالمك سرق أحلى سنين عمرك وأنا ضائع تائه بلا عالم سواك ألا يمكن أن نبنى معًا عالمًا خاصًا بنا ندرك فيه سنين عمرنا معا.

بصوت مضطرب :

- دعني أفكر.

- لم يعد هناك متسع فى العمر للتفكير سأسافر صباحًا فى قطار الثامنة.

بدهشة غاضبة :

- أحتاج لوقت أطول للتفكير واتخاذ القرار.

- النهاية تطاردنا سأنتظرك.

وعلى رصيف الانتظار وقفت لأكثر من ساعتين يقتلني عقرب الثواني الذى يجرى ويجرى حتى أفقت على دقة ساعة تحرك القطار بعنف انخلع له قلبى فقفزت إلى القطار وقد بدأ التحرك تهالكت على مقعدي لاهثاً يائسًا وضعت رأسي بين كفى وانسابت دموعي.. شعرت بمس يد حانية مرت على رأسي التفت فوجدتها.

- أنت هنا؟

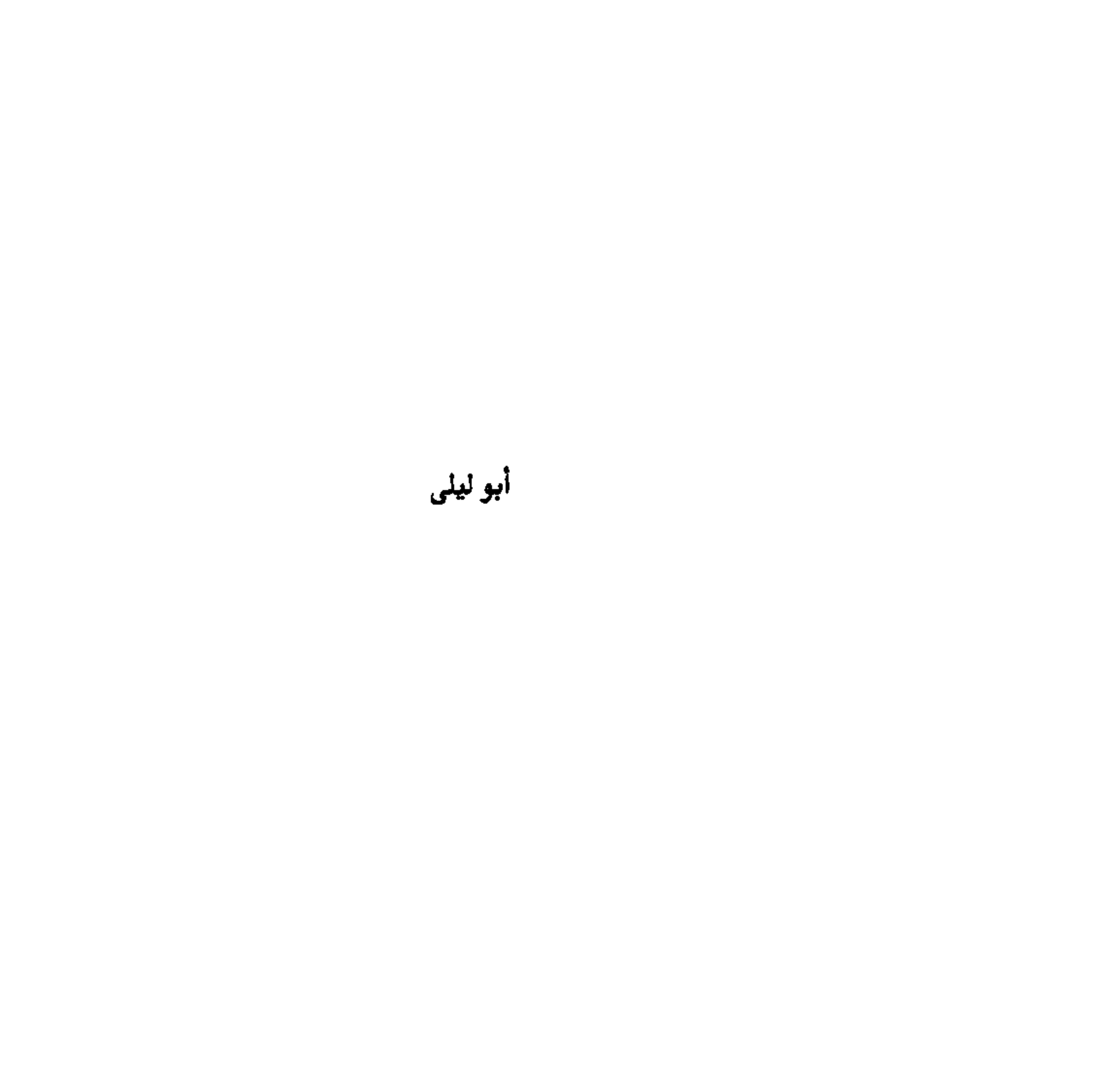
- منذ أكثر من ساعتين.

صرخت :

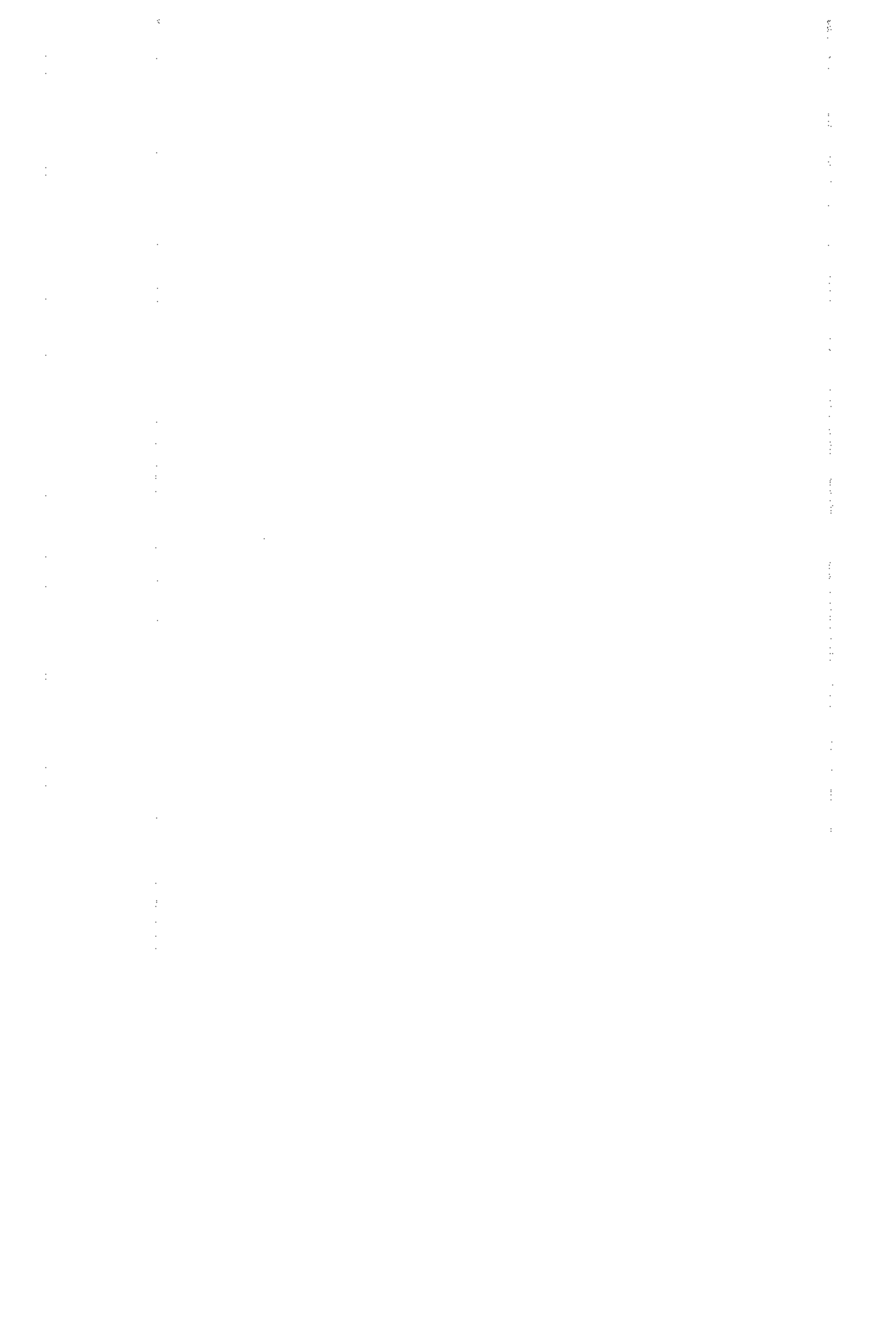
- لماذا؟

- لتجرب لسعة انتظارك التى سرقت سنين عمري.





أبو ليلى



حاولت لمرات كثيرة لا أدرى عددها و لم يحدث الاتصال, كنت أظن أن الأمر لن يستغرق سوى دقائق قليلة وينهى كـــل شيء , وأثبت لصديقي قدرتي على فعل هذا الأمـــر البـــسيط ولكن طال الوقت بلا فائدة, والمشكلة الأخرى أن الجو بـــارد جدًّا والسماء تنذر بالمطر والأرض مبللة من آثار مطر غزير منذ الصباح.. ما الذي دفعني لهذا المكان في هذا الوقت من الليـــل؟ يبدو أن قدميّ تعودتا على الوصول إلى هذا المكان النائي كلما أردت أن أحادث ليلى بعيدًا عن المتسكعين حـــول هواتـــف الشوارع.

سأحاول لثلاث مرات فقط.. رن جرس هذه المرة.. خفق قلبي بشدة.. ماذا سأقول لو رد أحد؟ سألت نفسي وكـــأنني تذكرت ذلك فجأة.. انقطع الخط قبل أن تنقطـــع أنفاســـي.. وضعت السماعة محاولاً السيطرة على مشاعري.. التفـــت إلى الطريق الطويل المظلم أمامى والأضواء الخافتة البعيدة.. تذكرت

كلمات صديقي : كم من الساعات وقفت تكلم حبيبتك! ألا تستطيع أن تقف دقائق لله مرة واحدة؟ تحديته.. نعم أستطيع أم حسبت أنه ليس على الأرض مسلم يحب المسلمين غيرك؟ الوقوف ثقيل ومرهق.. الجو شديد البرودة ولا أعرف أى الكلمات تقال في هذا الموقف.. فكرت في الاتصال بليلى غير أني استحييت أن أعمل عملا لله وأحادث فيه حبيبتي.

هدأت أنفاسي قليلا.. وضعت يدي على السماعة متسائلا مرة أخرى : ما الكلمات المناسبة التي تقال في مثل هذه المواقف؟ أنا لا أجيد سوى كلمات الغزل التي أبثها حبيبتي ليلى.. يدفعها شوقي وحنيني إليها أما هذا الموقف فلا أستطيع فيه تحديد مشاعر أو كلمات.. سأحاول لثلاث مرات فقط وأنهي هذا الأمر المرهق.. في المرة الثالثة كدت أتنفس الصعداء غير أن صوت جرس على الجانب الآخر جاء.. ازداد خفقان قلبي .. ارتفعت حرارة جسدي برغم برودة الجو..تمنيت أن يتسارع الرنين وينتهي أو ينقطع الخط .. كدت أضع السماعة لولا الصوت الآتي عبر الهاتف :

- آلو .... السلام عليكم
- أ... أ ....
- آلو السلام عليكم

- و... و... عليكم السلام

- أهلاً وسهلاً

....

- أهلا وسهلا؟

....

- من معي؟

- أ.. أنا مسلم من مصر.

- أهلاً بالإخوان كلهم من مصر.. هذه ثالث مكالمة أتلقاها اليوم واحدة من سوريا والثانية من فلسطين وكنت أنتظر مكالمة من مصر طول الوقت أشكركم.. أشكركم جميعًا.

تشجعت قليلا..

- كيف أخباركم وأحوالكم ؟

- الحمد لله يا ولدى.. نحمد الله على كل شيء لولا أن ليلى مريضة جدًّا.

- ليلى!

نظرت إلى الرقم على شاشة الهاتف لأتأكد أنـــى أطلـــب العراق وليس رقم هاتف ليلى..

- نعم ليلى ابنتي إنها تعاني آلام المخاض فى هـــذا الوقـــت الصعب من الليل وهى ضعيفة البنية جدًا وأخشى عليها والله يا ولدى.. إنها تتألم كثيرًا وقد تركنا زوجها حاملا ســلاحه إلى الجبهة ولا نعلم عنه شيئًا.

- لا تخش يا عمى الله معكم ومعها.

قال الطبيب إنه لا يجب أن تحمل لضعف قلبـــها ولكنـــها أصرت وقالت : لعلى آتيكم بطفل قوى متعافي بدلا مني..

تناهى إلى سمعي صوت بكائه.. انعقد لساني قليلا ثم قلـــت محاولا التخفيف عنه :

- إن شاء الله يأتيكم طفل قوى معاف وتخرج ليلى مـــن محنتها, تماسك يا عماه الله معك.

- نعم يا ولدى ليس لنا إلا هو يكشف البلـــوى ويفـــرج الكرب.. بالله يا ولدى لا تنس ليلى من دعائك ولا تنس أبدًا أبا ليلى.. أبو ليــ...... وانقطع الخط.

زوجتك نفسي

دارت عيناي فى أنحاء الغرفة حتى سقطت على الورقة الــتى كنت أبحث عنها.. كانت ملقاة على الأرض بإهمال.. ووجهها كقتيل تحجرت عيناه على سقف الحجرة.. كان يحلم قبــل أن يموت بأن ينطلق إلى هذا العالم الرحب الجميل.. ففرد جناحيه ورفع جسده لأعلى.. ليرى بعيون أوهامه أن السماء تفتح لــه ذراعيها.. فطار بأعظم قوة فى وجدانه.. فارتطدم بالجــدار.. وسقط وقد انهارت أحلامه كلها لحظة الموت المفاجئ. قمــت متثاقلا إلى الورقة كانت بعيدة.. كأنها فى آخر نقطة فى الحياة.. كما كان الطريق طويلا إلى عينيها الآسرتين.. كنــت أشــعل نيراني كل يوم فى صحراء الحياة فتتجمع الفراشــات بكثــرة متناهية لتحترق.. إلا هذه.. لم تكن ســوى فراشــة مــضيئة بذاتها.. واحدة من تلك التى لا تحتاج للاحتــراق.. فطريقهــا واضح المعالم.. فكرت كثيرًا وسهرت الليالي وأصبحت هــذه بالذات شغلي الشاغل فى الحياة.. كيف أصل إليهــا؟ كيــف أجعلها تأتى إليّ بجناحيها الرقيقين؛ لتلقــى بنفــسها فى حــر اشتياقي الملتهب شوقًا ولهفة؟ غيرت خطتي الــتى اســتخدمتها

مرات ومرات للإيقاع بها.. كان عليَّ أن تخبو ناري حتى تراها ضياء فتغريها بالسير إلى نفس الرحلة المتكررة.

حين التفت ناحيتها.. سرى فى مشاعري إحساس مرير لم أتذوقه من قبل.. أهو شعور بالندم؟ كان جسدها كله يختلج بارتعاشات وهي تطلق همهمات غير مفهومة.. نظرت إليها نظرة يشوبها الخوف من القادم.. لأول مرة ينتابني هذا الإحساس.. تساءلت : هل هذه نهاية طبيعية لكل هذا العناء؟ وضعت يدي على رأسي.. الصداع يكاد يفتك بي.. عاد صوتها يصرخ فى أذني : أرجوك اتركني.. ليس الليلة.. أنا الآن زوجتك كتبت لك كل حرف فى الورقة بدمي حتى تطمئن أنني سأكون لك وحدك.. ولكن ليس هكذا.. لا تجعل دمائي تلطخ الحياة.. لا أحب أن تكون ليلتي الأولى بهذه الطريقة.. أرجوك.. ارتمت على يدي تقبلها أن أتركها الليلة.

كان ضياء الطريق الذى أنرته لها بكلمات الحب قد وصل إلى ذروة التوهج و لم أعد أطيق صبرًا.. تحول إلى نار حارقة لم أسمع معها سوى صوت واحد بداخلي.. صوت شهوتي المجنون المستعر.. سقطت الورقة.. التى كتبتها بدمائها.. (أمام الله زوجتك نفسي) داستها أقدامنا وأنا أضمها بكل سعيري واحتراقي.. كنت أعرف يقينًا بأنها صارت لى وأصبحت ملكي فى حضرة الشيطان.. أول مرة أشعر أنني أغتصب امرأة.. كلهن كن يأتين يسعين كالفراشات للاحتراق فى ناري.. كان سيرى الطويل إلى هذه الفتاة قد أنهكني.. صفعتها بجنون..

مزقت ملابسها.. هالتها المفاجـأة.. تحجـرت الـدموع ف عينيها.. احتبس الصوت ف حنجرتها.. وفي عينيها ارتـسمت نظرة لا أنساها.. ذهول مقترن بالخوف.. ارتعـش جـسدها وهى تتراجع للخلف حتى اصـطدمت بالجـدار.. سـقطت متهاوية.. جثوت على ركبتيّ وحملتها بين يـديّ وجـسدها يرتعش متجاهلا نظرة الرجاء الحارة. ودارت الأيـام دورتهـا الطويلة بكل فرحها وحزنها وأحداثها ف ليلة واحدة.. وتبدلت ملامح الفرح على وجهها إلى ملامح الفجيعـة.. أمـسكت الورقة.. تأملت لون دمها وقد تجلط وتحجر وفقـد نـضارة احمراره.. تذكرت تلك اللحظة التى جرحت فيه يدها؛ لتكتب بدمها : زوجتك نفسي.. قلت لها : لا داعي لذلك.. قالـت لى: لقد أرادني شباب كثيرون ولكنى لم أر ف الـدنيا رجـلا سواك.. لم أثق إلا ف أمانتك أنت.. أنا لم أأتمن أحداً سـواك على نفسي.. ولم أفكر ف القدوم إلى بيتك إلا وأنـا أثـق ف طهارة علاقتنا وأنك لن تمسني بسوء أليس كذلك حبيبي؟

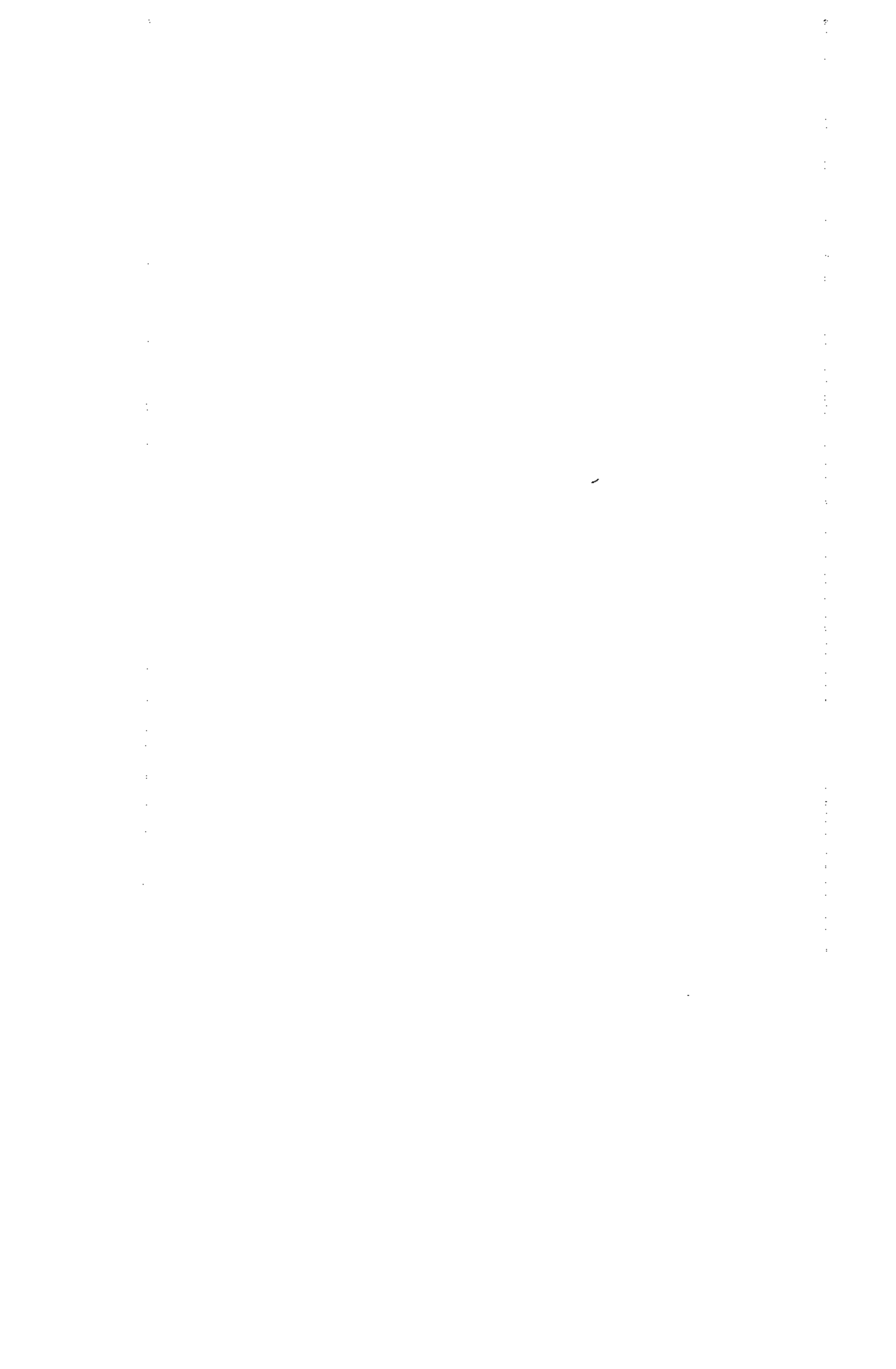
لم أضطرب لحظة واحدة فقد كانت تلك اسطوانة ترددت كثيرًا على مسمعي من كل فتاة أتت إلى هنا.. نعم هذه كانت مختلفة.. والسير إليها كان صعبًا وطويلا.. وبذلت مجهوداً مضنياً حتى جعلتها تثق فيّ كل هذه الثقة.. اخترعت لها مفـردات ف الحب مختلفة.. كنت واعيًا تمامًا بكل خطوة أخطوها ناحيتها.. وأعرف تمامًا ما الخطوة التى تليهـا.. ولا أتحـرك تجاههـا إلا بحساب دقيق.

كان كل ذلك يصب في هدف واحد.. أن أحصل على هذه الفتاة في سريري بدون أي تكلفة.. وهاهي خطتي قد نجحت على أية حال وهاهي في بيتي.. وبعد دقائق ستكون لي.. قلت لها وأنا أجرح نفسي : نعم حبيبتي وأنا كذلك سأكتبها بدمي مثلك.. كانت سعيدة جدًّا برغم القلق البادي علي وجهها.. وما إن انتهيت من كتابة الورقة بدمائي.. حتى وقفت تريد الانصراف فجنَّ جنوني.. بعد كل هذا الجهد الخارق تنصرف هكذا بسهولة.. تبدل وجهي في لحظة.. ظهر الوجه الآخر الحقيقي الذي لم يسبق لها أن رأته مني أبدًا.

أمسكت الورقة لأمزقها كعادتي بعد كل تجربة احتراق.. إلا أنني سمعت همهمة من ناحيتها.. التفت فوجدتها جالسة في الفراش تلملم جسدها بالغطاء.. ثم التفتت ناظرة إليَّ نظرة ميتة.. فارغة من أي معنى.. ثم تناولت ملابسها وارتدتها.

تحركت نحوي ووجهها يحمل نفس تلك النظرة المقتولة.. وجه فقد كل حيويته التي كانت منذ ساعة.. رفعت عينيها إلى وجهي.. كانتا في اتجاهي ولكنها كانت تنظر للاشيء.. ارتعدت أوصالي من تلك النظرة.. خفق قلبي خوفا ورعبًا.. تناولت الورقة من يدي.. تأملتها برهة كأنها تقرؤها.. مزقتها إلى قطع صغيرة.. نثرتها على الأرض.. ثم دارت عيناها في أرجاء الحجرة بذات الوجه الميت والعيون المتحجرة وتركتني وانصرفت.


ليل ونهار



عندما تنكسر الشمس نحو المغيب يسكنني الخوف.. ترتجف أوصالي.. أشعر أنها تأخذ مني شيئًا ما وترحل .. عندها يصبح النداء واضحًا واستجابتي أيسر فتحتويني هذه المرأة الساحرة بعينيها السوداوين وذراعيها الدافئتين.. يغطيني شعرها الأسود الفاحم الطويل بطول الليل والسهر واللذة المتواصلة.. تتراقص الحياة على شفتيها فتسيطر على كل خلجة في جسدي .. يهتز كل شيء مع جسدها.. الأوتار, الكئوس, عقلي, بصري, أسقط بلا تردد.. بلا وعى.. بلا ألم .صدقوني إن قلت لكم إني صليت بعدها الفجر فى المسجد.. هذا اليوم شق صوت المؤذن جدار الليل.. استيقظت فجأة كل جوارحي.. طارت صولة الجسد وسكرته.. انتزعت نفسي من أحضانها.. كانت دموعي تنهمر مع الماء المتدفق بقوة على جسدي المنتفض.. أسرعت إلى المسجد .. خيل إلى أن بابه اتسع بعرض الكون حينما أقبلت

عليه.. وكأن أمي قد فتحت ذراعيها لتضم ولـــدها الغائــب عنها.. ربما عنفتني.. عاقبتني ولكن لمن أذهب لو لم ألجأ إليها؟

جلست بعد الصلاة فى انتظار الشمس كي تعيــد لى مـــا أخذته بالأمس وعندما سطع الضياء و اصطبغت الحياة بـــالنور جددت عزمي وتوبتي.. دعوت الله وبكيت ذليلا منكـــسرًا.. عاهدته ألا أعود.

لما تدلت الشمس وحانت ســاعة الانكـــسار.. ناولـــت الشمس ذلك الشيء بلا تردد منتظرًا نداء المرأة الجميلة الممتلئة فتنة و إغواء.. سألت نفسي وأنا بين يديها الموفــورة العـــشق والاندفاع : من هذا الشخص الذى يسوقني بلا تـــردد نحـــو ندائها؟ أين يذهب عندما يشق سواد الليل صـــوت المـــؤذن؟ سؤال عابر مر على نفسي سرعان ما ذهب أدراج الرياح لمـــا اهتز الكون كله مع جسدها.. انتزعت نفسي وانهمرت دموعي مع الماء المندفع على جسدي المنتفض.

جلست بعد الصلاة فى انتظار النور.. يومهـــا رق لى إمـــام المسجد رقة شديدة أبكت عيونه عندما رويت لـــه انتظـــاري للشمس كل يوم.. ضمني لصدره بقوة و حنان بالغ.. قـــبلني وقال : أحسن الله خاتمتك يا ولدى.. وجـــاء النـــور فغـــسل روحي بالتوبة والندم والعزم والـــدموع.. فى المـــساء ناولـــت

الشمس بلا تردد ما أخذته في الصباح.. جاءت الشمس ورحلت وجاءت ورحلت.. آخذ منها وأعطيها حتى جاءت تلك الليلة كعادتها ساحرة متلألئة.. تنبض بالنشوة واللذة اللامتناهية.. سألت نفسي : لماذا لا تصير الدنيا كلها ليلا أو كلها نهارًا؟ لماذا يشقى الإنسان بين الليل والنهار؟.

ظل السؤال يعلو صوته كلما علا إحساسي بهذا البريق وهذا الجمال واهتز جسدها واهتز كل شيء معهـا.. دارت ودرت في فلكها ودارت الدنيا كلها.. الأجساد الأضواء الكئوس وظل السؤال يدور معي : لماذا لا تصير الدنيا كلها ليلا أو كلها نهارًا حتى سقطت في عوالم لانهائية من الأشكال الهلامية والهمهمات والألوان المتداخلة.. غبت تمامًا عن الوعي وإذا بإمام المسجد يقف أمامي ناظرًا لي بنظرة قوية غاضبة.. جذبني نحوه وضمني إليه ضمة كادت روحي تزهق معها ثم تلا في أذني قول الله تعالى : (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور).

كان كل حرف ينطق به قويًا جليًا يتخلل نفسي ثم همس في أذني : أحسن الله عاقبتك يا ولدي ثم غاب وجهه عني وغاب معه السؤال وإذا بالشمس تسطع قوية متخللة الهمهمات والألوان والأصوات المتداخلة حتى بددتها تمامًا.. صرت في مواجهتها مباشرة.. ناولتني جمرة من نار.. نعم جمرة من نار فرجعت خطوتين خائفا فإذا بصوت الشيخ يأتي من خلفها:

خذها يا ولدى ولا تتركها أبدًا لعل فيها نجاتك وظل يردد لا تتركها أبدا حتى غاب صوته عنى.. تناولت الجمرة خائفًا فإذا بها نور صافٍ كان بردًا وسلامًا وسكينة على نفسي.

انسكبت دموع توبتي وندمي وجددت عزمي.. ظللت أرقب النهار كله لحظة بلحظة وكلما دنا موعد رحيله كان ضعفي يزداد.. بدأ جسدي يرتجف.. دنت الشمس من المغيب ببطء متناه اهتزت يداي الواهنتان وإذا بالجمرة تتحول من النور إلى نار.. لاح لى الليل والمغيب والنداء.. اشتد ارتعاش يدي.. صرخت : لا.. لن أدعها.. يداي تحترقان.. علا صراخى : لا تتركني يا رب.. لا تدعني لهذا الليل لم أعد أحتمل.. لم أعد قادرًا.. صرخت صرخة هائلة.. تجاوبت أصداؤها فى أرجاء الكون من الألم وفجأة سكن كل شيء.. الزمن.. الحياة.. جسدي.. عيناى شاخصتان إلى السماء.. و يداي قابضتان على جمرها.. لم أعد أدرى معنى للمكان أو الزمان.. الحدود أو الجهات.. أين النور؟ أين الظلمة؟ أين الشهوة؟ أين الندم؟ أين الشيء؟ اللاشيء؟.

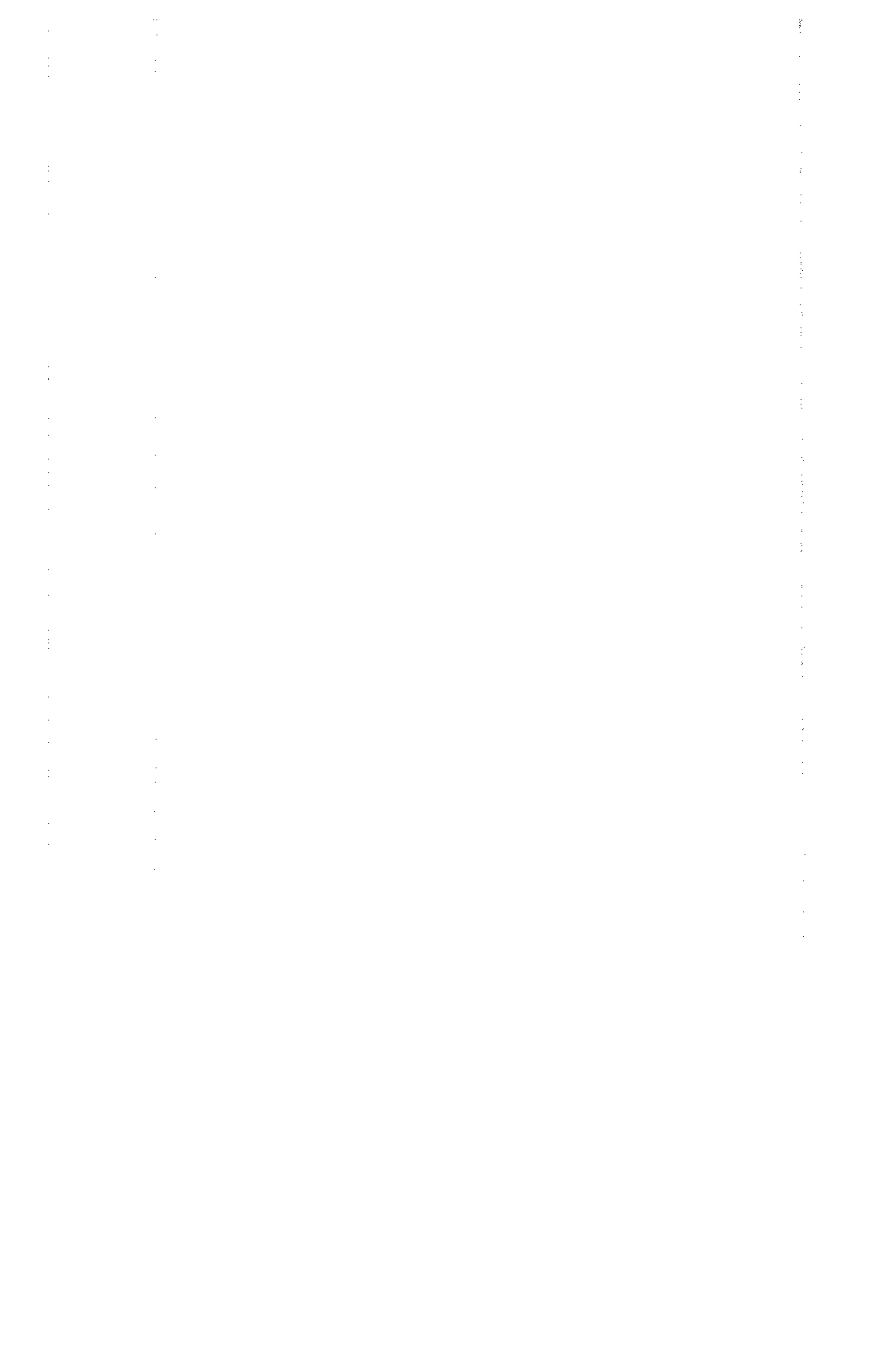
سمعت جلبة قوية وأصواتًا عالية ووقع أقدام مخيف وإذا بأقوام وجوههم قاسية الملامح غلاظ شداد مقبلين نحوى.. أشار إلىّ أحدهم وقال بصوت لا رحمة فيه: (خذوه فغلوه).. تناولوني بلا رحمة.. رفعوني وأنا أصرخ من الهول والخوف..

وإذا بقوم آخرين يأتون مسرعين وجوههم من نـــور تتفجـــر الطمأنينة والرحمة من أعينهم قالوا: على رسلكم هذا الرجل لنا قال الغلاظ: كيف ذلك أليس هذا فلان؟ قالوا: بلى قالوا: هذه صحيفته مجللة بالسواد وسيئ الأعمال.. قال بيض الوجـــوه : وهذه صحيفته معنا كذلك مكللة بالتوبة والإنابة.. مغـــسولة بدموع الندم .. هو لنا.

اختصم القوم وطال جدالهم وظل هؤلاء إذا ذكروا الذنوب يرد هؤلاء بالتوبة والندم وأنا واقف بينهم يسود وجهي حـــتى أوقن بالهلاك ويبيض حتى أقترب من النجاة حـــتى تمنيـــت أن يأخذني أحد الفريقين من هول انتظاري الـــذليل, إذا برجـــل طويل جسيم.. لحيته كأنها النور وجهه يعلوه بهاء ووقار.. يهل علينا وكأن القوم عرفوه فتهللوا لمقدمه و التجئوا إلى حكمه.. قال : قيسوا زمن الطاعة إلى زمن المعصية وخذوه للـــتي هـــي أكبر.. وتطلع الجميع للحساب الدقيق بـــين ســـاعات النـــور وساعات الظلمة وجسدي يكاد يسقط قطعة قطعـــة وقلـــبي يتقطع بين الخوف والرهبة حتى جاء الـــزمن متـــساويًا وعـــاد الجميع للحيرة والاختصام.. نظروا إلى الرجل يلتمسون الحكم عنده فصعَّد بصره للسماء كأنه يستجلب الحكمة ثم عاد ببصره إليّ يتأملني حتى سقط بصره على يدي.. قال : ما هذا الـــذى بيديه؟ قالوا: لا نعلم قال: انظروا ما فيها.. نظروا فوجـــدوها قابضة على جمرة من نار ملتهبة فصاح: الله أكبر.. الله أكـــبر وانتصب الجميع وقوفًا متهيئين لسماع الحكم وقبل أن ينطـــق

بالحكم كان صوت المؤذن قد انطلق معلنًا انبلاج الفجر فاستيقظت كل جوارحي وطارت صولة الجسد وسكرته وعندما أدركت الصلاة كان إمام المسجد يقرأ : (الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور).
كنت حريصًا بعدها على انتظار غروب الشمس كل يوم أتأملها خافض الرأس منكسرًا بين يدي الله رافعًا يدي إليه : اللهم إن هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعاتك فاغفر لنا.


أحـــزان خـاصــة



كل الأحزان تبدأ كبيرة ثم تأخذ فى الانزواء والاضـــمحلال حتى تتلاشى فى بحر النسيان إلا هذا الحزن الخاص فقـــد أتـــى مهيبًا جليلا يعلوه سكون وصمت.. كالآثار الإنـــسانية الـــتى يتعاقب عليها الزمان وتتفانى بين يديه الأيام وهـــو فى مهابتـــه وصمته شاهدًا على لحظة إنسانية شديدة الخصوصية.. جعلتـــه صامدًا على حاله إلى الأبد.

انتصف الليل وانساب السكون حزينًا على المكان والزمان.. هدوء جليل.. وسكينة عامة أستشعرها فى تلك الليلة.. حـــين نادتنى أمى بصوتها الواهن.. وطلبت أختى لتسألها : مـــا هـــذه الأصوات عندنا فى البيت؟ هل تنتظرون زيارة أحـــد؟ أسمـــع أصواتًا كثيرة.. تبادلت أنا و أختى نظرات الحيرة والاســـتفهام التى اعتدنا عليها منذ مرضت أمى ثم قالت لها أختى : لا أحـــد هنا.. الجميع نائم.. فسكتت أمى وواصلت رحلة صمتها الذى

بدأته منذ أكثر من شهر.. وعادت إلى عالمها الذى لم نعد نعلم عنه شيئًا ولكننا نرى ونتطلع إلى مظاهره المحيرة.

حلمت أمي بأداء عمرة أخيرة قائلة: أريد أن أذهب لهذه العمرة لأغسل ذنوبي وأختم بها عمري.. كانت هذه نيتها التى تلفظت بها أمامنا.. وفى مطار المدينة المنورة.. وبعد لحظات قليلة من وصولها تعلقت قدمها بذراع الحقيبة ووقعت على جانبها الأيمن.. لينجم عن هذا الوقوع كسر فى المفصل الأيمن فى مفاجأة كبيرة وهى لم تخرج بعد من صالة المطار لمواصلة رحلتها لأداء مناسك عمرتها الأخيرة.. وفى غضون أيام قلائل كانت أمي قد أجرت جراحة لتغيير المفصل.. كانت فيها حريصة على أمرين.. الأول : ألا نعلم بالخبر أبدًا.. و الثاني : أن تؤدى العمرة مهما كلفها ذلك.. و تم لها ما أرادت فلم نعلم بالخبر إلا قبل وصولها بساعات.. وأدت مناسك العمرة على كرسي متحرك بعد خمسة أيام من إجراء العملية الجراحية.

عادت أمي من العمرة متماسكة وقوية كما عودتنا.. حدثتنا خالتي التى كانت معها عن صبرها فى المحنة.. عن تحملها المضني للآلام .. و الآهات التى لم تخرج منها أبدًا رغم أنها قد تجاوزت السبعين..

و رغم بنيتها الضعيفة جدًّا.. عادت حبيبتنا.. وحبيبة الجميع.. وحين تماثلت للشفاء كان لله تعالى أمرٌ آخر.. وله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد.

فى تطور مفاجئ لنا بدأت أمى فى الانسحاب من الحياة والجنوح للصمت.. والعزوف عن الطعام بشكل واضح.. دون الاستجابة لتوسلاتنا.. كنت أستشعر من نظرات أمى السابحة فى اللاشيء أنها سئمت الحياة.. و لم تعد تشعر بدور ما لتقوم به فعزفت عنها متهيئة لرحلة أخرى.. كانت تمارس طقوسها المعتادة بشكل طبيعي فلم تترك قيام الليل ولا أورادها القرآنية ولا صيامها ونوافلها.. ولا متابعة مشروعها لحفظ القرآن الكريم الذى بدأته من فترة قريبة أتمت فيه حفظ البقرة وآل عمران.. كان صمتها يعذبنا جميعًا.. وبدأنا فى التردد على الأطباء ناظرين للأمر على أنه حالة نفسية.. ولكن كان الأمر على غير ما قدرنا جميعًا.

كان أصعب ما فى الأمر حين اكتشفنا مرضها العضال أنه فى مراحله الأخيرة.. وأن هناك لحظة ما من الحياة نخاف منها تطرق الآن الأبواب بعنف فترتجف لها قلوبنا ... وتطفر الدموع من عيوننا لمجرد تخيل المشهد... الحقيقة الكبرى فى الحياة اقتربت وعلينا انتظارها والاستعداد لها.. كانت الآلام المصاحبة لهذا النوع فوق الاحتمال.. بالرغم أنها لم تئن لحظة.. وعرفنا كذلك أن عزوفها عن الطعام هو أحد آثار المرض ونتيجته الطبيعية.. أما عزوفها عن الكلام فحير الجميع.

أما أنا.. فكنت أراها وكأنها مسافر أعد حقيبته وقد اقترب موعد السفر ودنا.. فجلس يتأمل حقيبته ويراجع زاد العمر الذى أعده لهذه الرحلة.. ربما رأت الزاد لا يبلغها.. ربما استصغرت عملها.. وكل المؤمنين يستصغرون عملهم.

كنت أرى صمتها المحير كطائر يتأمل جناحيه اللذين سيعبر بهما رحلة العودة لموطنه الأصلي.. سيعبر بهما تلك المسافة من الدنيا للآخرة.. من دنيا الغرور والسراب إلى عوالم الحقيقة.. هل هما قويان ليطير بهما أم سيهوى بهما الريح فى فراغ سحيق.. كان علينا جميعًا أن نطل على المشهد الأخير.. لحظة بلحظة.. نتجرع مرارة الحقيقة قطرة قطرة.. نرقب مشهد نهاية أمي.. نهاية الحبيبة.. نهاية رحلة طويلة من الكفاح والكد والكبد فى هذه الحياة.

الكون ساكن سكونًا غريبًا.. بالقرب منها بيني وبينها الفراغ الهادئ والسكون المهيب.. أنا فى دنيا الغرور لا أدرى ما يحدث حولنا, أما هي فقد تبدت لها كشوف الحقيقة واستقبلت زائرين لم أستطع أن أراهم ولكن شعورًا ما مبهمًا كان ينتابني.. وقفت أمي بزاد رحلتها فى الحياة وجناحيها المتوثبين للحظة الفوز الحقيقية.. تستعد لعبور المسافة بين الدنيا والآخرة.. لم يبق على موعد الرحيل إلا وقت قليل وعليها أن تتهيأ.. سمعتها تنادى عليَّ بصوتها الواهن.. اقتربت منها

وسألتها : ماذا تريد.. لم ترد عليَّ.. ولكنها كانت تزيح بيدها الضعيفة الغطاء عن جسدها حتى تكشفت.. استحييت فتراجعت متحيرًا.. هل أغطيها أم أتركها؟ وأنا لا أعرف ماذا تريد.. فتراجعت وجلست على باب الحجرة.. وعلى ضوء الممر الخافت وبصوت هامس رحت أتلو وردي القرآني.

سألتها مرة فى محاولة لكسر حاجز الصمت : من تحبين من زوجات النبي صلى الله عليه وسلم؟ متوقعا أن تقول عائشة لحب رسول الله صلى الله عليه وسلم لها.. ولكنها قالت بصوتها الضعيف : خديجة.. فقلت : لماذا؟ قالت : لأنها وقفت بجانب النبي صلى الله عليه وسلم وساندته.. فأخذني المعنى.. ورحت أتأمل سبب اختيارها لخديجة دون عائشة.. وتذكرت قول الحبيب صلى الله عليه وسلم: (والله ما أبدلني الله خيرًا منها.. آمنت بي حين كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس).. ورحت أتذكر لأمي خدمتها للناس ونهضتها فى ذلك فما سألها أحد شيء وردته أبدًا.. كنا ونحن صغار لا نعرف أبعاد الحياة وقيمتها نختلف معها جدًا حين يعود أحدنا متأخرًا للبيت فلا يجد غداءه لأنها ببساطة أطعمته لضيف جاءها فجأة.. فللضيافة عندها طقوس أهمها الطعام مهما كان وقت الزيارة.. كنا نعاتبها كثيرًا على كرمها الزائد المندفع على الرغم من قلة ما تملك.. ولكنها لم تكن لترد أو تلتفت إلينا.

فى الأسبوعين الأخيرين انهارت صحتها بصورة متسارعة جدًا.. فقد كانت تذهب لقضاء حاجتها وحدها ثم تساندت على الجدار ثم تساندت علينا ثم لم تقبل أن نحملها أو أن نضعها على كرسي متحرك.. وفى فراش مرضها عندما كانت تريد أن تتقلب تنادى عليَّ فأجلسها ثم أضمها إلى صدري وأقبلها ثم أضعها على الجانب الآخر.. ثم يحلو لها أن أضع يدي على مواضع ألمها وأدعو لها بما يفتح الله على من الأدعية. وكانت فى أحايين كثيرة تطلب ذلك منى فتقول ضع يدك هنا وادع لى.. وكنت كلما أجلستها أضمها إلى صدري أحاول أن أرتوي من دفئها وحنانها على قدر طاقتي قبل أن أفقده للأبد.. قبل أن يرحل رحلته الأخيرة.. وأدع لها أدعية كلها تخاطب الله عز وجل بكلمات الرحمة.. محاولا أن أذكرها دائمًا بهذا المعنى.

ذات مرة قلت لها : يا أمي الإنسان فى الحياة يعيش بين الخوف والرجاء أما فى مرضه فلا يليق به أن يخاف من الله.. لأن الله تعالى فى مرض العبد المؤمن يكون سبحانه وتعالى فى شأن الرحمة فمن مقتضيات الأدب مع الله عز وجل أن يحفظ هذا المقام ولا يظن بربه أبدًا أنه يريد أن يعذبه.. فتهز رأسها مؤمنة على كلامى.

كانت مولية لى ظهرها عند بداية تلاوتي للقرآن.. وعند كل علامة ربع كنت أرفع رأسي لها لأطمئن عليها.. فجأة وجدتها قد تقلبت وأصبح وجهها قبالتي.. اندهشت كيف استطاعت ذلك وحدها؟.. ناديت عليها فلم ترد.. عدت

للتلاوة وعند العلامة التالية فى المصحف رفعت رأسي لأطمئن عليها فوجدتها قد ولتني ظهرها مرة أخرى وقد عاد الغطاء مرة أخرى ليغطى ما تكشف منها.. وكأن أحدًا ما قـد غطاهـا وأحسن تغطيتها بعناية كبيرة.. اقشعرَّ بدني من هذا المـشهد.. كانت هذه إحدى المشاهد المتكررة من أمنا فى الأيام الأخـيرة وقد كانت تحيرنا.. هي أصبحت تعيش بجسدها معنـا أمـا روحها فتعيش فى عالم آخر.

قبل عدة أيام مالت عليَّ أختي مندهشة قائلة : سألت أمي : هل أحضر لك طعام الغداء؟ قالت لها بثقة : لماذا؟ لقد تناولت قطعة مكرونة باللبن.. سألتها بعدها : هل أكلـت مكرونـة باللبن؟ قالت : نعم.. قلت : هل كانت جميلة؟ قالت : جدًّا.. قلت : من أين أتت لك؟ قالت: أطعمنيها الله.. وبعدها بيومين استيقظت من النوم وطلبت ماء وصابون وفرشاة أسنان لتغسل يديها وأسنانها قالت أختي : لم؟ قالت : لقد تناولـت طعـام الغداء أرز وسمك.. أو نجدها لا ترد علينا ولا تلتفت لكلامنـا وبعد فترة تقول : كنت أصلى فكنا نحرص أن نجعلـها علـى وضوء دائم.

عدت للتلاوة حتى أتممت قراءة جزأين مـن المـصحف.. أغلقت المصحف ثم تطلعت إلى أمى مخاطبًا نفسي قائلا : قـد يطول مرض أمك ولا أحد يعرف متى ستحين النهاية ربما بعد

شهر أو شهرين ربما يطول الأمر لسنة أو أكثر وعليَّ أن أجدد نيتي فى أمي وأن أحتسب خدمتي لها عند الله عز وجـــل.. وأن أنوى خدمتها مهما طال مرضها تاركًا ورائى الـــدنيا مهمـــا كانت مشاغلي.. وجددت نيتي و عزمي على ذلك ثم دعوت الله عز وجل أن يعينني على ما نويت وأن يحسن عملي معهـــا فامتلأت نفسي براحة وعزم كبير.. جددت نيتي و لم أعرف فى تلك اللحظة أنها تتهيأ بعد عدة ساعات لرحلتها الأخيرة فكان نيتي التى جددتها هذه الليلة من أرجى مـــا فعلـــت أســـأل الله قبولها.. ثم بدا لى أن أقرأ سورة يس.. وبدأت فى تلاوتها حـــتى وصلت إلى الآية الكريمة.. (قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لى ربى وجعلني من المكرمين).. ثم توقفت وقد بلغ مني جهد السهر مبلغه فنمت.

فى الصباح استيقظت على ندائها.. هُرِعت إليها قلت: نعم أمي.. قالت: أجلسني.. أجلستها وسألتها : تريدين ماء؟ فلـــم ترد ناولتها رشفة صغيرة جدًا ثم ضممتها إلى صدري بحنـــان وحب.. ووضعت رأسها على كتفي وألهمـــني الله تعـــالى أن ألقنها الشهادة.. مرات عديدة قائلا : لا إلـــه إلا الله محمـــد رسول الله.. ورحت أرددها.. ثم بدأت فى تلاوة أدعية.. اللهم إنها أمتك بنت أمتك ناصيتها بيدك.. ماض فيهـــا حكمـــك.. عدل فيها قضاؤك.. أسألك بكل اسم سميته لنفسك أوعلمتـــه أحدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أو أنزلته فى كتبك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبها وشـــفاء صـــدرها

وذهاب غمها وحزنها.. اللهم بشرها بروح وريحان ورب راض غير غضبان.. اللهم ارحمها فإنه ليس لها سواك.. اللهم اغفر لها وارحمها وعافها واعف عنها.

وظلت فى حضني أردد لها الأدعية ولا أعلم أننا فى مشهد النهاية والملائكة حضور من حولنا تشهد دعائي لأمي وتؤمن عليه.. وتستعد لاستلام الروح بعد دقائق معدودة.. ثم أعدتها إلى النوم.. وقبلت يديها ووجهها وخرجت فى انتظار الخادم التى كانت تقوم على شأنها مع أختي.. لم تلبث أن جاءت وسألتني عن الوالدة قلت لها : لا أعرف لم تعد تتحرك أو تتكلم فأسرعت إليها وفى ثوانٍ كانت قد خرجت إلينا قائلة: أمكم فى النزع الأخير تسلم روحها.. أسرعنا إليها وقد ارتجت الدنيا كلها حولنا فقد أتت اللحظة التى خفنا جميعًا منها والتى تمنيت بصدق أن يتسابق الموت إليّ ولا أرى تلك اللحظة.. أمام أعيننا كانت أمي تسلم روحها.. عدة أنفاس قليلة أدركناها ثم تقلص خدها قليلا.. وأغمضت عينيها ضاغطة ضغطة خفيفة.. ثم سكنت أنفاسها.. فألهمني الله حمده فقلت وقد تشنج صوتي بالبكاء: الحمد لله.. الحمد لله.. الحمد لله.. إنا لله وإنا إليه راجعون.. إنا لله وإنا إليه راجعون.. ووضعت يدي على كتف أختي.. التي بدأت فى البكاء قائلا لها : استرجعي هذا وقت الصبر.. فحمدت الله واسترجعت وهى

تشهق من البكاء.. سكنت أمى للأبد.. رحلت.. طارت بجناحي الرجاء إلى ربها ملبية نداءه.. طارت إلى هناك.. بعيدًا عنا.. لتقطع المسافة من الدنيا للآخرة.. بقلوب رضيت وسكنت لقضاء الله عز وجل جرت دموعنا غزيرة دون أن يصدر صوت واحد.

عاد السكون الجليل ليخيم على المكان واتشح الكون بالسواد وقبل حضور أحد انتهزت فرصة خلو المكان فتناولت المصحف ودخلت على أمى المسجاة تأملت وجهها الذى افترسه المرض فغير ملامحه.. فملأه بالنمش وبرزت عظام وجنتيها وتحولت شفتاها إلى خطين أسودين.. فقبلتها بحنان بالغ عدة قبلات على جبينها ثم بدأت فى تلاوة سورة يس حتى إذا وصلت إلى الآية الكريمة : (قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لى ربى وجعلني من المكرمين) توقفت فقد جاءت طبيبة الصحة لإتمام الإجراءات.

وهرعت خالاتي إلينا وقد هزهم الحدث فقد كانت أمى كبيرة العائلة والجميع يعتبرها أمه ثم تكاثرت النساء إلى البيت بهدوء عجيب.. وامتلأ البيت بالصمت فلا صوت سوى القرآن الكريم.. يملأ الأرجاء ويلقى علينا السكينة والرحمة ثم بدا لى أن أتسلل مرة أخرى إليها لأتطلع إليها.. وعندما دخلت عليها.. كانت سورة يس تملأ جوانب الغرفة وكان القارئ يتلو الآية التى توقفت عندها مرتين.. (قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي

يعلمون بما غفر لى ربى و جعلني من المكـــرمين). فابتـــسمت بحزن راعف.. وحمدت الله عز وجل وخرجت وسورة يس التي تمنيت أن أقرؤها تملأ المكان بصوت عذب شجي..

كانت فى غسلها خفيفة المحمل طيبة الرائحة تقاصر وقـــت الغسل على غير العادة ووقف على غسلها نـــساء مـــن أهـــل القرآن.. ثم نادوا على لألقى عليها نظرة الوداع فرأيت وجهها وقد أشرق وصفا وكأنها نائمة.. اختفى كل النمش من وجهها وعادت شفتاها للاكتناز وكأنها صغرت خمسين عامًا, وضعت وجهها بين كفى وقبلتها فى جبينها وتأملت وجهها للحظة ثم انصرفت وسعادة غامرة تملأ قلبي.. وخلت أننى أتوهم فسألت أختي و بنات عمي ممن وقفن على غسلها : هل ما رأيته مـــن صفاء وجهها وسكونه الجميل صحيح؟ فأكد لي الجميـــع مـــا شاهدته وأكثر.

تقاطر الإخوان وجاءوا من سفر بعيد ليودعـــوا أمهـــم إلى مثواها الأخير تمنيت أن يحملوها فجاءني بهم الله تعالى فحملوها وأنزلوها من البيت حـــتى وضـــعوها فى الـــسيارة ثم ذهبنـــا للمسجد.. وفى المسجد وبعد صلاة العصر قدمت للصلاة عليها فوجدت بجوارها لفافة صغيرة.. احترت ماهذه اللفافة الصغيرة و لم أعرف و لم يتسن لى أن أسأل فقد كبر الإمام لصلاة الجنازة فصلينا ثم خرجنا للمقابر لدفنها.. فى جنازة مهيبة حتى وصلنا

للمقابر.. ثم تدليت إلى القبر لأتناول جثمان أمي الطاهر وأواريه التراب.. ارتسمت على وجهي الحزين ابتسامة مطمئنة وأنا أتناولها بين يدي وأضمها وأقبلها ثم نضعها على الأرض ونولي وجهها للقبلة.. ثم كانت المفاجأة.. حين ناولوني تلك اللفافة الصغيرة فسألت : ما هذا؟ قالوا : طفل رضيع متوفى جاء به أهله إلى المسجد فوضعوه بجانب أمي ليدفن معها.. يا لرحمة الله.. فحملته بعناية ووضعناه بجوارها.. فبدا المشهد كأنه أم نائمة بجوار طفلها.. مشهد لا أنساه ما حييت.. فكانت بشرى بالرحمة لها دلالاتها.. وعلى قبرها ألقيت موعظة من أحد الإخوان.. علق فى ذهني منها الحديث القدسي : (إذا ابتليت عبدي فصبر استحييت أن أناقشه الحساب).

انتهت مراسم الجنازة وتفرق الجميع.. وخلت الحياة من أحب الناس.. وستشرق الشمس وتغرب.. وستمر الأيام وتتوالى.. ويبقى الحزن فى قلبي كالآثار الإنسانية لا يتبدل ولا يتغير.

فى صباح اليوم التالي جاءتني زوجتي مبتسمة وقالت : أبشر لقد رأيت والدتك وقد ارتدت ثوبا جميلا نظيفًا ووضعت طرحة الصلاة على رأسها وقد ابتسمت لى قائلة أنها ذاهبة للصلاة.

تمر الأيام , أحاول أن أنسى تلك الليلة , وهذا المشهد, كل المشاهد أحاول أن أجعلها مجرد حلم مر على فى نومي.. هـــي الآن موجودة هناك.. وأنا هنا.. وإذا سافرت أنا لهناك.. كانت هي بالتأكيد هنا.. ستتصل في أي لحظة لتطمئن , نعم ســـيرن جرس هاتفي الآن , لأسمع نغمتها المخصصة ست الحبايب يـــا حبيبة .. لتتجدد فى قلبى أحزان خاصة.



العندليب



يحلو لي كثيرا مراقبة جدتى ذات السبعين عامًا وهى تمشط شعرها الناعم الطويل جدا باعتناء فائق كفتاة مراهقة.. وأقول لها : يا جدتى أتمنى أن يكون شعر زوجتي المنتظرة مثل شـــعرك فتقول : يا ولدى ليس المهم الشعر وتشير إلى قلبها وتقـــول : المرأة المحبة ذات القلب الصافي أروع شيء فى الدنيا.. فـــأقول لها: وما المانع أن يكون شعرها ناعمًا وقلبها طيبًا.. وتكـــون جميلة مثلك.. فتضحك متلألئة وتقول لأمي : ابنك هذا يجيـــد الغزل.. انتبهي له.

تبرز استدارة وجهها الجميل الأبيض المشرب بالحمرة حين تضع خمارها استعدادًا للصلاة أو لقراءة القرآن, تمارس شعائرها الدينية بخشوع جليل.. يصل أحيانًا لحـــد البكـــاء.. كـــثيرة الصوم.. لا تدع صلاة الليل حتى لو صلت جالسة.. كنـــت أسمعها أحيانًا تقول بخشوع باك حين تقف لصلاة الليل : نويت أصلى لك يا رب من ديون الصلاة التى فاتتنى وأنـــا صـــغيرة

فاقبلها يا رب واغفر لى ما فات.. فجسدي لا يقـوى علـى النار.

كنت مغرمًا بجدتي كثيرًا.. طيبة القلب.. حنونة.. خصتني وأنا صغير بكل حواديت الحب.. الجميلة والوحش.. الأميرة والأقزام السبعة.. وغيرها ولكنى لا أنسى تنهيدة صوتها أبـدا وهى تحكى قصة سندريللا.

فى يوم من أيام مراهقتي بدا لى أن أسألها عن الحب.. كنت أريد أن أسألها تحديدًا عن قلبها هي.. هل ذاقت يومًا الحـب؟ هل عرفته؟ هل جربت عذابه؟ لم أستطع يومًـا أن أتخيـل أن جدتى كانت ذات يوم فتاة صغيرة.. فمنـذ وعيـت الحيـاة ارتسمت فى ذهني صورة واحدة عن جدتى تلك التى أراها بها الآن.

عندما جلست أمامها اكتشفت كم هي المسألة عـسيرة أن أسأل جدتى هل أحببت يومًا؟ فقـررت الـتفكير فى كيفيـة الوصول لإجابة عن هذا السؤال حتى اهتديت لحيلة.. وهى أن أسألها عن الحب فى زمانها هل هو مختلف عـن الحـب الآن.. ففاجأتني وهى تقول : لم يختلف ولن يختلف.. قلت : كيف؟ أشاحت بيدها وقالت متنهدة : كله أوهام.. قلت : يا جدتى كله أوهام؟ قالت : نعم كله أوهام.. البنات هـن البنـات.. والشباب هم الشباب.. البنات يتميزن بالبلاهـة والـسذاجة

ويتمنين دائمًا من يشعرهن بأنوثتهن فينجذبن بسرعة فائقة لأى كلام جميل يقال.. والأولاد يعرفون ذلك عن البنات.. فيحفظون عبارات وجملا جوفاء.. يملئون بها عقول البنات الغبيات.. ويظل الشاب من هؤلاء يتنقل بين الفتيات.. كلما شبع من ساذجة تركها محطمة الفؤاد.. وانتقل لأخرى.. هذا هو الحب الذى تسألني عنه.. اندهشت قائلا : هه.. هذا هو الحب فى رأيك يا جدتى؟ قالت : هذا ليس رأيي هذه هي الحقيقة.

قلت : ولكنك تتجنين كثيرًا.. هناك حب صادق.. قالت : الحب الوحيد الصادق هو الذى يطرق على باب البيت لا أن يختلس النظرات والكلمات.. سكت قليلا ثم قلت بتردد : وأنت يا جدتي؟ حين قلت هذه العبارة فهمت بسرعة قصدي.. فأربد وجهها وتغير وقالت : أنا ماذا يا ولد؟ قلت بجرأة مترددة غير مقدر العواقب : ألم تحبي فى يوم من الأيام؟ ألم تجربي طعم الحب؟ وحينذاك كنت قد تجاوزت خطًا أحمر لم أدرك خطره فصرخت فى وجهي قائلة : اخرج من حجرتي يا عديم الأدب.. فانتفضت واقفًا من المفاجأة.. ولكنها واصلت صراخها : اخرج يا قليل الأدب.. حتى جاء على صوتها أمي وأبي وإخوتي فقالت : أدخلوا هذا الولد مدرسة لتدريس الأخلاق ثم وجهت الكلام لأبى تصور ابنك يسألني : هل أحببت يومًا مثل الفتيات الغبيات؟ أنا أحب؟ لم يستطع أبى أن

يغالب الابتسام وهو يهدئ خاطرها.. وكانت ليلة.. بذلت بعدها مجهودًا خرافيًا لمصالحتها.

بعد شهور على هذا الموقف.. حدث شيء غريب.. إذ جاء أبي بعدد أسبوعي من إحدى الجرائد وكان معه ملحق خاص في ذكرى الفنان عبد الحليم حافظ.. هذا الملحق لم يفتحه أحد.. فلم يكن أحد يستمع لعبد الحليم إلا نادرًا.. ولا أحد يهتم بهذه الأخبار المعادة كل عام.. وظل الملحق ملقى في سلة الجرائد وقتًا طويلا حتى لمحته جدتي.. ويبدو أنها تفاجأت بوجوده.. فمدت يدها بتلقائية وتناولته.. ونحن جميعًا جلوس حولها وأخذت تتصفح الملحق باهتمام بالغ.. لم يلحظه سواي.. ولكني لم أجرؤ أن أسألها.. يكفيني الخصام الطويل الذي عانيت منه.. وبذلت جهدًا خارقًا لأنال رضاها مرة أخرى.

أثار فضولي الشديد قراءتها الملحق عدة مرات ومتابعتها للصور بهذا الإمعان والاهتمام كأن عبد الحليم حافظ هذا كان زوجها أو حبيبها.. وبعد فترة اختفى الملحق.. وكلما خرجت جدتي من الحجرة دخلت من ورائها لأبحث عنه.. حتى وجدته في دولابها وبين طيات ملابسها موضوع بعناية فائقة.

في أحد الأيام طلبت أمي مجموعة من الجرائد لنفرشها على المائدة.. فتذكرت الملحق فتسللت لغرفة جدتي وأخذته بهدوء وجئت بمجموعة من الجرائد وفرشتها على المائدة وفرشت

فوقها ملحق عبد الحليم حافظ لأرى رد فعلها.. و تحلقنا حول المائدة ونادت أختي على جدتي.. وحين أتت فوجئت بالملحق مفروش على المائدة ووضع فوقه الطعام صرخت فينا : قفوا قفوا.. اندهش الجميع.. ووقفت أمي منزعجة وهي لا تعرف ما بها.. قالت جدتي : ارفعوا الطعام بسرعة.. فقال أخي الأصغر ساخرًا : الطعام فيه سم قاتل.. فلم تلتفت إليه جدتي ونهرته أمي بعينيها ورفعت الطعام بسرعة وأخذت جدتي بيد مرتعشة تلملم الملحق وسط اندهاش الجميع وتقول : العندليب.. العندليب.. هكذا نفعل بالعندليب.. تجاوبت أمي بسرعة معها وهزت رأسها وقالت : عذرًا يا أمي لا يصح أن نفعل ذلك بالعندليب.. دمعت عينا جدتي وقالت : العندليب.. العندليب هو ذاكرة الحب وتاريخها .. ثم انتبهت جدتي فجأة للموقف.. وشعرت بحرج بالغ فتحرك خدها مختلجًا بابتسامة دامعة.. فقبلت أمي رأسها بحنان وقالت : لا يصح أن نفعل هكذا بالعندليب سامحينا.. سأعاقب المشاغب الذى فعل ذلك.. وقبل أن يعلق أحد كانت أمي ترسل بعينيها إشارة تحذيرية للجميع بالسكوت.. وساعدتها فى لملمة ملحق العندليب بعناية فتناولته جدتي وذهبت لحجرتها و لم تتذوق الطعام حتى أعادت ترتيب صفحاته ومراجعة الصور صورة صورة.. ثم جلست وحدها صامتة شاردة تتناول طعامها.

اكتسب شعرها الكستنائى بمرور العمر لونًا يميـــل لـــصفرة شمس الغروب المتوهجة.. أعطاه بعدا شجيًا جعلني فى كل مرة أراها تمشط شعرها أمر عليه بيدي وأتمايل كما يفعل عبد الحليم حافظ وأغنى لها : (بتلوموني ليه , تا , بتلوموني ليه) فتتـــرك شعرها ليدي منسجمة مع لحن الغنوة.. وعنـــدما أقـــول : (والشعر الحرير ع الخدود يهفهف .. ويرجع يطير)... فتبتسم فى سعادة بالغة وتقول : آه منك أنت.. ثم تضع خمارها للصلاة فيبدو وجهها الأبيض كقطعة من القمر فأقبلها فى خدها مكملا الغنوة : (لو شفتم عينيه.. حلوين قد إيه).. فتدفعني برفق فى صدري وقد أخذها الطرب كل مأخذ قائلة : يا ولد هذا وقت الصلاة.. دعك من هذا الكلام الفارغ.. الذى تضحكون بـــه على البنات.

كانوا يشيرون بالإجابة...

وللحرية الحمراء باب.. بكل يدٍ مضرّجة يدقّ
كلٌّ هذا الأنين..
صلصلةُ السلاسل..
فرقعة السياط التي تحت نيرالها تستغيثُ و تعوي جراحي..
وظهري الذي قدّ أخدود أوجاعِهِ نزفُ نارْ..
حين يسند إعياءَه مُنهكا للجدار..
يلوحُ أمام عيوني طيفكْ..
أدرك ساعتها..
كم أحبُّكْ..
كم أتوقُ لشمِّكْ..
كم أتوقُ لضمِّكْ..
كم دم طازج النّبض يشتاقُ تُربك..
كم يئنُّ بوطنِه سجن العروقِ و يصرخ شوقًا إليكْ..
كم أتوقُ إليكْ..
عانقيني..
واعتصري النارْ..
واعتصري من فؤادي عشقكْ..
سينسلُّ بين مسامّك..

يُنبِت..

عشبًا..

و زهرًا..

و زيتونهْ...

الشاعرة رحيل

امتعض وجهه في لحظة.. جحظت عيناه واحمرت واشتعلت فشعرت بمس حرارة شررها وهو يلتفت إليَّ فى نظـــرة ناريـــة احترقت لها أوصالي..نطقت عيناه بكل كلمة يمكن أن يتفـــوه بها.. وقبل أن يسرح خيالك فى كل ما يمكن أن يحدث كـــان زئيره المخيف يهز أرجاء المكان..

يا ابن الكاااااااااااااااالب.. صور لك خيالك المـــريض أننا نائمون.. غافلون.. تظن أن لديك قدرة على الهرب منا.. سأجعلك عبرة لكل من يفكر فى الهروب.. ظل صوته يهـــدر كالشلال بكل قوة.. لم أعد أميز ما يقوله فقد دخل كل من كان واقفاً من الحراس المعركة.. كان صراخه هو الأمر المباشر بالضرب وانهالت العصيُّ عليَّ من كل جانب وفى كل مكـــان من جسدي المنهك بلا رحمة ولا ذرة شفقة.. حـــتى غـــاب الزمان.. واهتز المكان ليتبخر خيط الوعي المحترق.. متراقص فى حلقات متصاعدة نحو التلاشي مخلفة وراءهـــا بقايـــا رمـــاد

السنين.. وحطام الأماني.. ورفات الأحلام.. آخذة معها وجوه الوحوش والظلام من حولى ليشرق فى حلكة السواد وجهها الأبيض المستدير كأنه قطعة من القمر.. بابتسامه دافئة طيبة.

أماه.. كم أشتاق إليك.. ترتجف دموعي.. يحتقن حلقي وتنتحب الكلمات فى صدري.. أمي.. آسف.. سامحيني لتأخري عليك.. كنت سآتيك اليوم.. كنت سأزورك.. ولكنى خفت عليك.. فقد أصبحت شؤمًا على كل من أقترب منه.. تتسع ابتسامتها بحنان بديع وهى تضمني إلى صدرها بعمق ودفء.. قالت ضاحكة متعجبة : أنت تخاف؟ المشاغب يخاف؟ ثم بحنان.. لا تخش شيئًا.. هيا حبيبي.. ياصغيرى لقد حذرتك كثيرًا من مشاغباتك ومغامراتك.. ولكنك أدمنت التحليق هناك بعيدًا كالنسور فوق قمم الجبال.. ثم تمسح على رأسي قائلة.. من هنا يبدأ التعب.. ثم يا ولدى ارتح قليلا.. سأحكى لك قصة علاء الدين والأميرة ست الحسن والجمال.

كان صوتها يشع بالحنان والأمان أغمضت عينى مستسلما لدفء حضنها محلقا فى عوالم لانهائية من السكينة والرضا.. راكبًا بساط الريح.. أجوب البلاد وأعبر بحار الأهوال.. وأضع على قمم الجبال شاراتي.. حاربت التنين المسحور ذا الرءوس السبعة الذى ينفث حممه فى كل ناحية.. وصلت إلى المغارة السوداء.. أحضرت الخاتم البديع مهر الأميرة ست الحسن والجمال.

هان كل شيء حتى حلقت ببساط الريح عائدًا إلى حبيبتي المنتظرة لحظة فرح واحدة فى حياتها بلهفة وشوق.. لاحت مدينتها من بعيد.. خفق قلبى شوقًا للوصول إليها.. كانت الشمس تعكس أشعتها على القباب الذهبية فيسطع ضوء باهر يغشى الأبصار.. لم أستطع من قوة الضوء أن أتبين الملامح الغليظة القادمة نحوى.. كائن ضخم الجثة.. تصورت للحظات أنه مارد المصباح السحري.. غير أن صوته القبيح الصباحي كان مألوفًا لدىَّ.. حارس الزنزانة فتح بابها لاستدعائي للتحقيق..

لم أخطط أبدًا للهرب ولا طرأ على بالى هذا الأمر.. كانت مجرد أحلام و همهمات نفس تتراءى فى أوقات غفواتي القليلة أننى هناك.. بعيدًا فى أرض فضاء خضراء واسعة لا حدود لها.. هذه الرؤى لم أجرؤ حتى أن أتذكرها فى ساعات صحوي الطويلة.. ولكنى وبدون مقدمات كنت هناك فى الفضاء الفسيح كيف حدث هذا؟ لا أدرى.. فى عربة القمامة التى تتهادى يوميًا خارجة من باب السجن العملاق.. كنت أجمع القمامة عليها حين بدأت فى التحرك للخروج و جدتني لا أحرك ساكنًا فى لحظة تغافل أو تكاسل من الحراس.. لم يتصوروا أن أحدًا لديه الشجاعة على فعلها.. ولكنى وبدون ذرة جرأة على التفكير أو الفعل أصبحت هناك فى قلب الفضاء المديد.. المدينة الكبيرة الواسعة..هل هذا حلم؟ أم أننى أعيش

الحقيقة.. لحظة شعورية غامضة.. مبهمة فى الحياة.. شيء مـــا بين النوم واليقظة.. الحلم والحقيقة.

لم يكن هذا الفضاء الأخضر اللانهائي الذى يتراءى لى كل ليلة.. ولكنه كان واسعًا كبيرًا.. تعلوه الكآبة.. الحر والغبـــار يملآن الفضاء على اتساعه.. زحام رهيب.. أجساد متلاصقة.. وجوه كالحة مكفهرة كثيرة جدًّا تتحرك فى كـــل الاتجاهـــات ببلادة وسأم ورائحة العرق تسد الأنوف برائحته المقززة. يحتل الآذان ضجيج الباعة الجائلين بأصوات غليظة مبحوحة مختلطـــة مع نعيق السيارات التى تقف فى طابور طويل يتحـــرك بـــبطء قاتل.. تنفث سوادًا حارًّا خانقًا فتحيل الصباح المشرق إلى لون رمادي شاحب كئيب.

وقفت سيارة إسعاف فى وسط أمواج السيارات تنتحـــب بصوت صارخ مؤلم تستنجد.. ينظر إليهـــا الجميـــع بعيـــون متكاسلة بليدة والموت يضحك من معركة هو الفائز فيها بـــلا شك.. وقفت تائها لا أعرف لى هدفًا ولا طريقًا ولا كيـــف أتصرف.. إلى من أذهب فى هذه المدينة التى تتقـــاذفني فيهـــا الأجساد المتحركة فى كل الاتجاهات؟ دوت الأسئلة في رأسي كمطارق وتزاحمت حتى ألجأتني لجدار فاســـتندت عليـــه ثم انزلقت إلى الأرض جالسًا.. ما كاد جسدي يلمـــس الأرض حتى لمحته قادمًا فانتفضت واقفًا.. تذكرت لأول مرة منذ هروبي أننى هارب وأن الجميع لا بد وأنهم بدأوا فى البحث عنى ربمـــا صورتي الآن فى كل وسائل الإعلام مقرونة بأوصافي.. جـــف

حلقي وهربت الدماء من عروقي وشعرت أن كل ذرة في جسدي ترتجف والبرد يزحف إلى رأسي كأنه أسراب من النمل تدب كالمطارق.. التفت موليًا ظهري له مسرعًا متلاشيًا في الزحام.. خيل إلى بعد لحظات أن الجميع ينظر إليّ.. أن صوري تملأ كل اللوحات الإعلانية على الطرق أغمضت عينيّ لبرهة أحاول أن ألملم شتات ذهني بلا جدوى.. الناس لا ينظرون إليك أنت تتخيل ذلك.. نعم ليس من المعقول أن كل هؤلاء يبحثون عنك.. بقى لي ذرة واحدة في تفكيري أحاول أن أتمسك بها قبل أن أنهار نهائيًا. اقتربت من بوابة الجامعة بحذر بالغ كان كل شيء كما هو لم يتغير شيء ذو بال.. الجميع يتحرك بنفس البلادة.. وقفت أرقب الداخلين والخارجين.. أعرف موعد قدومه اليومي.. ربما هو الذى أستطيع اللجوء إليه والاختباء عنده.. هو بالذات لن يشك فيه أحد لأنه موضع ثقتهم.. لم يطل وقوفي حتى أقبلت سيارة فارهة وقفت قبالتي ثم نزل السائق سريعًا مهرولا إلى الباب الخلفي.. نزل من السيارة.. هو؟ نعم هو.. التقت عينانا في لحظة مضطربة.. أدار وجهه بارتباك للسائق بسرعة وكأنه لم يرني.. وبصوت مضطرب ألقى عليه تعليمات لا معنى لها.. ثم وضع على عينيه نظارته السوداء وتحرك نحو باب الجامعة.. ظلت عيناى متعلقة به وهو يبتعد في خطوات مضطربة.. وعند باب المدخل التفت إليّ مرة أخرى فالتقت عينانا مرة ثانية عيون ملهوفة مستنجدة ببصيص أمل.. وعيون مستنكرة خائفة قلقلة.. زوج أختي

لفظني بعينيه. كيف سأذهب إليها؟ ربما هو معذور.. خائف.. ولكن الآن أين أذهب؟ ضاقت الدنيا أكثر وأكثر.. الذهاب إلى بيت أختي بالتأكيد سيكون خطرًا على الجميع هكذا خيل إلى من رسالة نظرته التي تلاشى معها كل أمل في أن ألقى مأوى آمن عنده.

همت على وجهي خائفًا.. مضطربًا والوقت يمضي نحو الظهيرة الخانقة ولا أستطيع في هذه المدينة على اتساعها أن أجد مأوى أستظل به وكلما مر الوقت ازداد اضطرابي وقلقي واتسعت دائرة خوفي.. على أن أجد مكانًا أذهب إليه بأي ثمن قبل أن ينقضي النهار ويهدأ الزحام.. وأكون أشهر إنسان يمشي بين الناس.. مرت كل أسماء أقاربي على خاطري اكتشفت هذه اللحظة أن عددهم كبير جدًّا إلا أن هذا العدد ضاق على اتساعه.. فكلما فكرت في الوصول لبيت أحدهم أتخيل القوات المدججة بالسلاح التي تنتظرني.. كلما حاولت أن أتجنب هذا التفكير وأقول لنفسي ليس من المعقول أن يتم هذا الحصر فيأتيني الرد.. ألم تكتب بيديك أسماء العائلة كلها فردًا فردًا حتى الأطفال الرضع في كشف البيانات بمديرية الأمن حين تم اعتقالك ولم تجرؤ يومها على إخفاء اسم واحد منهم بعد أن هددوك بالسحق إن أغفلت فردًا واحدًا ومع ذلك سحقوك.. وهب أنهم لم يصلوا لأحد منهم ألا تتخيل الأهوال التي سيلاقونها لو تم اعتقالك عندهم.. وهكذا أغلقت التفكير نهائيًا في هذا الباب.

لم أستطع التوقف منذ الصباح عن السير لحظة.. مخافــة أن يتأملني أحد أثناء توقفي ومرت الظهيرة الحارقة وبدأت الشمس فى رحلة الزوال وتفكيري يتحول إلى رماد تذروه رياح الشك والخوف والقلق.. لا أدرى لماذا تمر على ذهن هذه الصور الآن تتوالى بشكل مفاجئ وقوى وسريع.. أهو العقــل يحــاول أن يتشبث بالبقية الباقية من قواه؟ هل جهاز المناعة يستخدم تلك الحيل النفسية للدفاع عن آخر تحصينات جسدي المنهك قبــل الانهيار؟ حفنة من الذكريات.. ووجوه ناضرة مبتسمة مفعمــة بالنور والأمل.. شباب مندفع لا يعرف معنى الخوف.. الأفكار الوليدة.. المناقشات.. الصياح.. المظاهرات.. اتحاد الطلبــة.. الأسر.. حرم الجامعة.. المعاني الغضة الجميلة.. الإصرار على أن تكون رسالتنا فى كل العلوم الإنسانية رسالة واحــدة اسمهــا الحرية.. توقفت ذاكرتي عند وجوه الأصدقاء رحت أتفحصها بشغف.. وأستحضرها بشوق كبير كأن لها حــضورًا ماديًــا أمامى.. برزت شمعة الأمل لتنير لمشاعري لحظة أمــان دافئــة عندما تصورت أنني يمكنني أن أذهب لأحد منهم.. عند هــذه النقطة من التفكير بدأت أسماء كل أصدقائي المقربين تتــهاوى واحدا تلو الآخر واهتزت ذبالة الضوء أمــام ريــاح الخــوف والقلق على مصير كل الأسماء التى مر طيفها على ذاكرتي حتى

انطفأت وخلفت وراءها دموعًا تفجرت من عيني.. وسالت على خدي و في نفسي قدرًا هائلا من اليأس.

مر النهار كله.. في هذا الفضاء الواسع.. وهذا العالم الكبير خارج الأسوار و لم أحظ بلحظة أمان واحدة.. و لم أبل حلقي بشربة ماء.. لم أستطع أن أتوقف لحظة لأسند ظهري على جدار لألتقط أنفاسي.. لم أجرؤ على التفوه بكلمة ليسمعني أحد.. حتى القبور خشيت أن أتحرك نحوها لأزور أمي فيهدموها على رءوس الأموات.

سكينة كبيرة بدأت تغمرني حين تحركت قدماي المنهكتان في طريق العودة.. وهدوء يتسلل ويضم أجزائي المشتتة.. لا أدري لماذا ابتسمت عندما لاحت أسوار السجن من بعيد وأنا أحث الخطى إليها.. مازال الطريق يحمل نفس الرائحة القديمة العطنة التي لفحتني حين قدمت للمرة الأولى.. مازالت تلك البيوت المتراصة على جانبي الطريق كأنها قبور موتى.. لا تسمع فيها صوتًا للحياة سوى تلك المقاهي المتناثرة التي يعيش روادها حالة من السباحة الفضائية وسط حلقات الدخان الأزرق المتصاعد للاشيء.. عندما اقتربت من بوابة المعتقل الكبير قفزت إلى ذاكرتي الصور الدامية يومها حين انهالت العصي والهروات في حفل الاستقبال الأول والأعجب من نوعه في كل

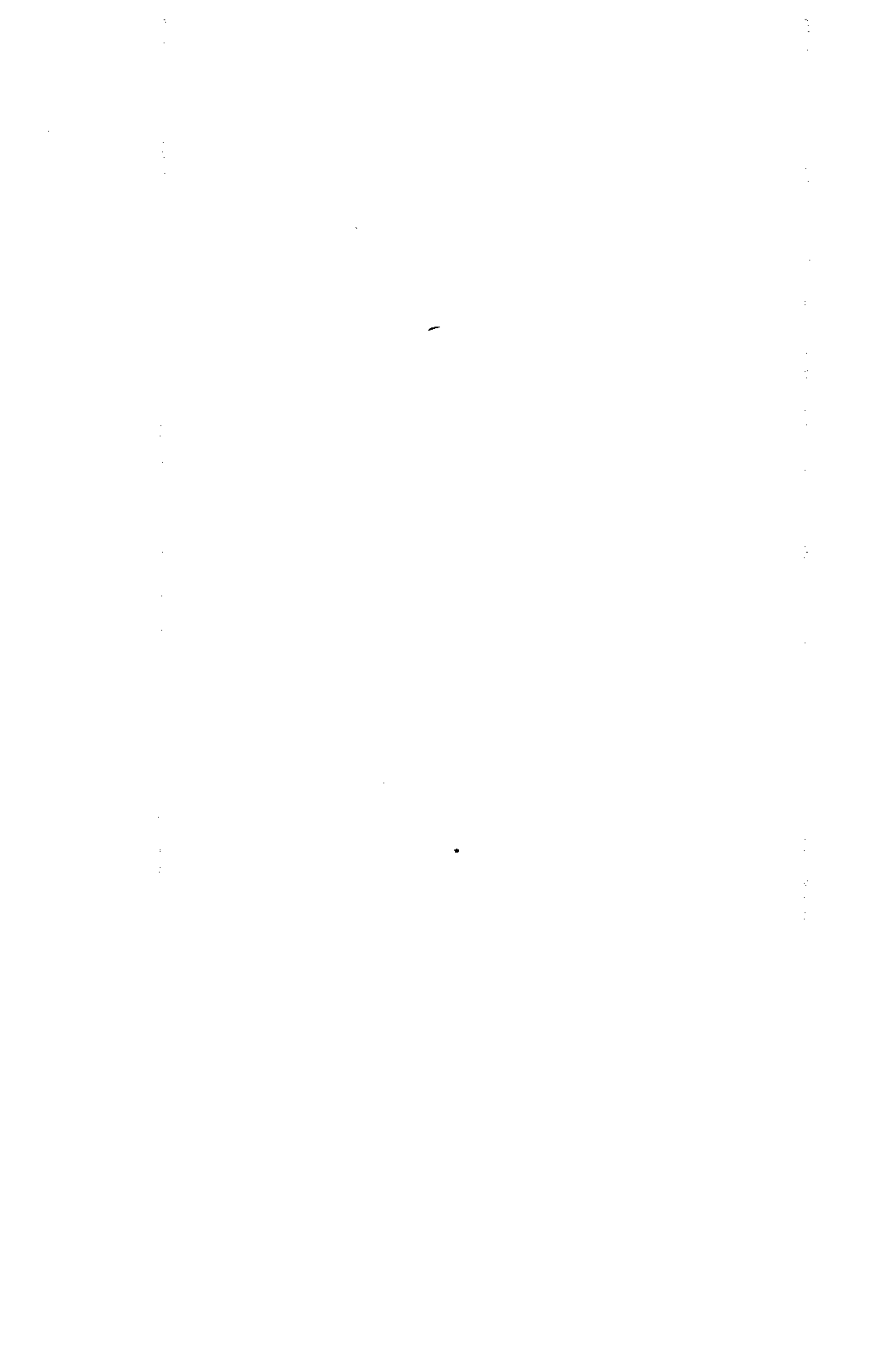
حفلات الاستقبال فى العالم.. حين علقوني كالذبيحة وانهالوا عليَّ بالكرابيج.. عرفت يومها وفى تلك اللحظة بالذات كيف يمكن للإنسان أن يكون أقوى مما يتصور.. وأصلب من كل الصعاب والآلام, وعليه أن يختار أن يكون بهذه القوة حيوانًا أو إنسانًا. حين اختليت بجروحي فى زنزانة الحبس الانفرادي شعرت أنها أوسع مكان فى الكون.. غنيت كل مواويل الحزن فى عيون بلادي.. رسمت.. بقطرات دمائي المنسابة.. أسوار الجامعة.. المظاهرات.. وجوه زملائي.. أسرة الحرية تدعوكم لرحلة جميلة إلى حضن الوطن.. مزارات متميزة.. وبرنامج مثير.. شاهدوا المذبحة فى قلعة محمد على.. استعدوا لعبور قناة السويس وتحطيم الهواجس الأزلية.. شاركوا فى مظاهرة الأزهر الشريف بعد صلاة الجمعة ضد تدنيس المسجد الأقصى.. فى قلعة قايتباى ستتعرف كيف يكون السجين هو الشخص الوحيد الحر فى أوطاننا.. حفلة السمر فى رشيد.. حيث ستتعرف كيف يواجه النيل كل السدود والشقوق عبر رحلته الطويلة من ضيق الوادي إلى حضن البحر حيث الاتساع واللاحدود.. رسمت وجهه بملامحه المبتسمة ابتسامة الحياة الأبدية حين مات برصاصة غادرة فى إحدى مظاهرات الجامعة ضد ممارسات اليهود.. مسحت بيدي على استدارة وجهه المكتنز بالأمل وقبلته.. وقلت له : يا ليتني مكانك لم أعد

أحتمل.. ابتسم لى وقال : لا مجد لكل زهور الكــون بــدون الشوك.. رسمت وكتبت وملأت جــدران الزنزانــة حــتى لا أنسى.. حتى أتذكر دائمًا أن جروح الوطن أكبر بكثير من كل جروحنا مجتمعة مهما كانت..

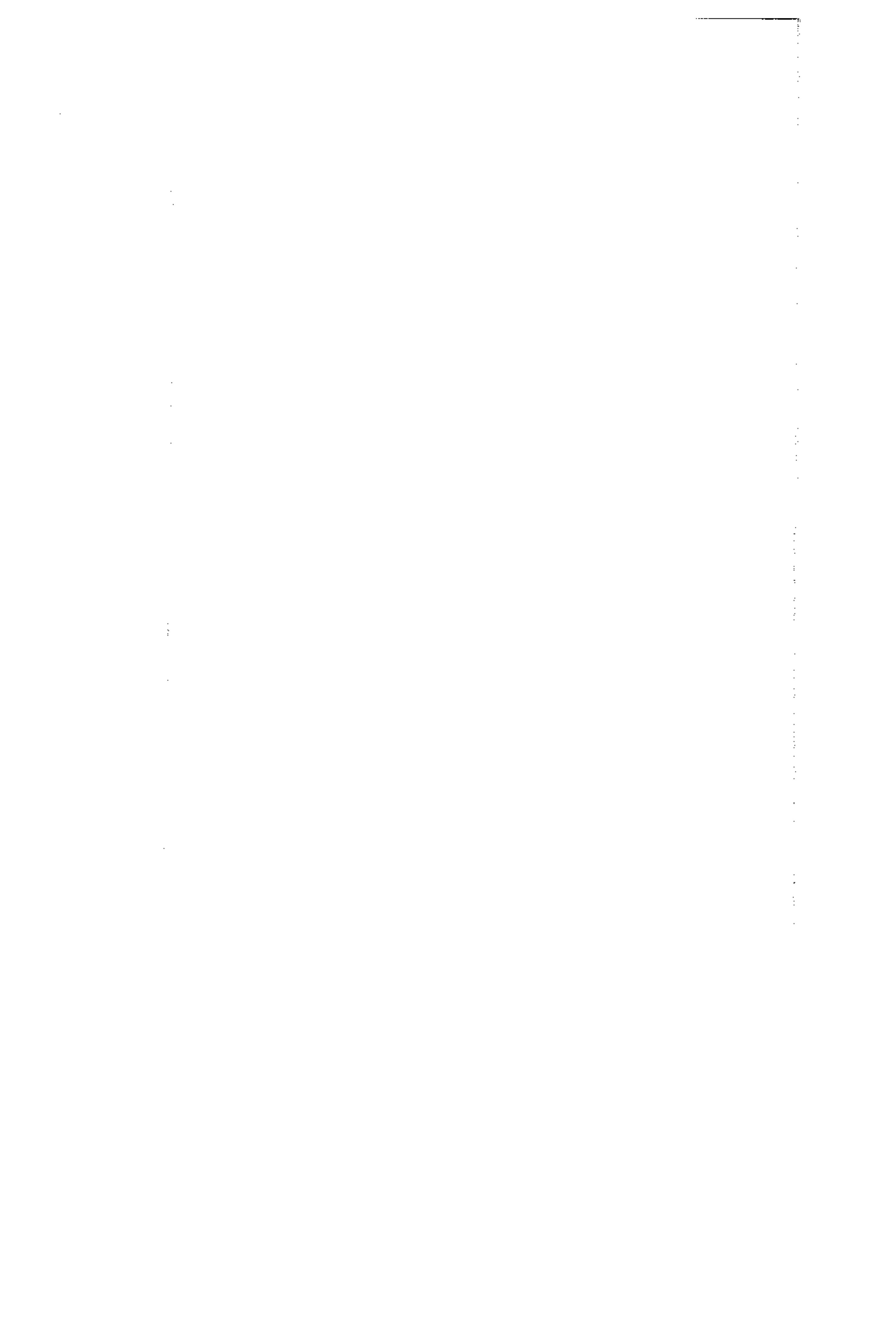
وقفت أمام بوابة المعتقل منهكًا تمامًــا.. انطلــق الــصوت صارخًا ممطوطًا : اثبت محلك.. وقفت فى مكاني.. فيما أكمل الحارس صراخه الممطوط : كلمة سر الليل؟

أنا هارب.. سحب أجزاء البندقية واتجه صوبي بحذر : ارفع يديك لأعلى.. هارب؟ نعم هارب.. مالذى جاء بك إلى هنا؟ لا أحد يهرب إلى هنا؟ هنا سجن.. الحرية خلفــك فى هــذا الفضاء المديد.. أشرت إلى رأسي وقلت : الحرية هنا.. ضحك الحراس الذين التفوا حولى ساخرين قال أحــدهم : يبــدو أن المخدر هو الذى هنا.. ضاربًا رأسي بقبضة يده.. كان قائــد الحرس يرقبني من بعيد.. اقترب مني بخطوات قويــة ووجــه صارم وعينين تلتمعان أخذ يتأملني.. اتسعت حدقته الناريــة.. عرفني.. التفت إلى الحراس.. صارخًا : أمسكوه.. ثم التفت إلى ثانية فلفحتني أنفاسه الحارقة الكريهة مصدرا زئيرًا مدويًا مزلزلا أرجاء المكان : تظن أنه يمكنك أن تفلت منا.. لو عــدت إلى بطن أمك لعرفنا مكانك.. وانطلق الحراس فى مهمتهم الوطنية الجليلة.. بالعصي والهراوات على جسدي.. واهتز الظلام أمام عيني.. وتخاذل الوعي وتراجع وتراقصت الصور من حــولى..

لتتراءى وسطها وجوه أخرى متلهفة وهى تتعلم لأول مرة كيف تخط حروف النور والأمل.. وهى تتلعثم حين تلملم أشلاء الكلمات فتنطقها فى جملة مفيدة واضحة.. تتسع ابتسامة رضا على وجهى فتضيء زنزانتى بنور الأمل الطاهر النقي.. يقطعه فجأة هجوم تتري.. ليكتشف مسئولو السجن الفصل الدراسي الذى أقمته منذ عدة شهور فى زنزانتى لخمسة من الجنود أقنعتهم بأن الخطوة الأولى تبدأ من هنا مشيرًا إلى رأسي.. يومها صرخ المحقق بكل سطوته وجبروته فى وجهى صارخًا يائسًا.. سأقتلك.. وأقتلهم.. كيف يؤدون لك التحية العسكرية وأنت معتقل؟ قلت له مبتسمًا.. لم تكن تحية عسكرية.. كانوا يشيرون بالإجابة حين سألتهم من أين تبدأ الحرية؟



لقاء هناك...



حكت لنا أمي فى ليلة من ليالي رمضان أن جدتى رأت طاقة القدر.. فانتبهنا جميعًا وقلنا مندهشين : طاقة القدر؟ قالت: نعم طاقة القدر.. تجمعنا حولها طالبين منها أن تحكي لنا كيف رأت جدتنا طاقة القدر. قالت : كانت نائمة على سطح بيتنا هربًا من الحر فى إحدى ليالي العشر الأواخر حين أحست بنور غامر يملأ السماء فانتبهت مذعورة وقلبها يخفق من شدة الخوف والاضطراب .. اقترب النور حتى غمرها فشعرت بسكينة هائلة تتسرب فى حنايا روحها.. فتذكرت ليلة القدر وحين همت بالدعاء.. تزاحمت الصور واختلطت عليها الحروف.. وحين تحرك لسانها كانت طاقة القدر قد اختفت وعم الظلام مساحات الروح والكون مرة أخرى.

أتذكر هذه القصة كلما مررت من أمام قبر الجندي المجهول بالمنشية.. ذلك المكان الذى التقينا فيه لأول مرة.. بدا لى ساعتها كطاقة القدر.. حين وقع نظري عليه تعثرت خطوتي فى

لحظة.. تماسكت واتجهت إليه.. كان واقفًا بهامته المديدة ونظرة عينيه ترسل بريقًا جذابًا آسرًا دافئًا.. أضاء الحياة وملأ روحي بالحب والأمل.. اقتربت واقتربت حتى دخلت في محيط ذراعيه.. وحين غمرني بهاء نظرة عينيه وشعرت بحر أنفاسه يلفح وجهي.. مددت يدي لأتحسس كيان وجوده فلم أجده.

أتأمل من مجلسي في ديليس تمثال سعد زغلول وهو يعطيني ظهره موليًا وجهه للبحر.. مادًّا رجله في خطوة تؤهله لبعاد لن يعود منه.. أتنهد وأنا أمسح بإبهامي مكان رشفتي من فنجال القهوة متسائلة : منذ ولى سعد زغلول وجهه للبحر لم يعد.. حتى أنه لم يفكر أن يلتفت وراءه ولا مرة.

جاءتني النادلة بتلك الابتسامة التي تبتاع بها البقشيش يوميًّا تلقي علي بتحية الصباح قائلة : ليلة أمس تذكرت فعلا أنك كنت تلتقين رجلا هنا في نفس المكان.. انتبهت لها بفرحة غامرة دفعت الدموع إلى عيني قائلة : حقًّا؟ قالت : نعم يا سيدتي تذكرت فعلا.. كنتما تدخلان معًا من ناحية باب البحر.. فيفتح لك الباب فتدخلين ويدخل وراءك.. كنتما تجلسان هنا - وأشارت إلى ركن- وهي تواصل حديثها : كنتما تحتسيان قهوتكما وتتهامسان بعينيكما طول الوقت.. هززت رأسي بفرح وقمت إليها فقبلتها فابتسمت متحرجة قائلة : عذرًا يا سيدتي على استكمال عملي.. قلت لها : من فضلك أكملي.. قالت : هذا ما تذكرته فقط ولو تذكرت شيئا آخر سأحكيه لك.

قال لى ذات مرة : (عندما سألته من هو الجندي المجهـــول هذا؟) ذلك المحارب الذى اختفى فى الحرب فلا يعرف أحـــد أهو حى أم ميت.. هل سيعود أم أنه اختفى للأبد؟ فأقاموا لـــه نصبًا تذكاريًا تخليدًا لذكراه. سألته : لو عاد الجندي المجهـــول فجأة هل سيكون للنصب التذكاري قيمة ما؟ قـــال بـــصوت واثق: لن يعود.

قال النادل فى تافرنا : نعم أتذكرك يا ســـيدتي.. ومـــن لا يتذكر هذا الجمال الملكي.. ابتسمت لمجاملته شاكرة.. أشار إلى ركن رومانسي جدا فى الدور العلوي وقـــال : هنـــا كنتمـــا تجلسان أنت وذلك الفارس .. قلت : حقًا؟ أكان فارسًا؟ قال: لا أعرف تحديدًا ولكنني خمنت ذلك منك.. قلت : كيـــف؟ قال: من يقدر على حب الأميرات سوى الفرسان؟ ومـــن لا يستطيع أن يكون فارسك فعليه الرحيل.. خفق قلبى حين ردد كلمة الرحيل.. وخفت أن أكمـــل الحكايـــة معـــه فتركتـــه وانصرفت.

فى مكتبة الإسكندرية رأيته.. أقسم إننى رأيته.. كان يقف أمام ماكينات الطباعة العتيقة الموضوعة فى صدر المكتبة يتأملها باهتمام بالغ.. حين أحس بقدومي التفت إلى التفاتته الآسرة.. انجذبت إليه.. حتى غمرني محيط نوره.. ضـــمني إلى صـــدره ووضع شفتيه على جبيني بعمق وأودع فى قبلته سره المتوهج.. وحين هممت باحتضانه قبضت الهواء.. غير أن إحساس وجوده

مازال فى أثر قبلته.. أشعر به هنا.. لمحته يبحث عن كتاب هناك بين الأرفف.. أسرعت إليه.. ابتسم وناولني مجلدًا فى الطب.. مرسوم على غلافه قلب الإنسان مضرج بـالاحمرار.. وتحتـه مكتوب بين قوسين (إن كنت طبيبي...) رفعت عينيَّ إليـه متسائلة فلم أجده.. تلفت حولى.. فوجدته هنـاك فى الـدور العلوي.

صعدت درجات السلم بسرعة أزاحت السكون العـام فى المكتبة فالتفت لى عدة أشخاص باستنكار غاضب.. كان أمام أرفف الروايات.. قال: أغمضي عينيك وانتقى رواية نقرؤهـا معًا.. بلا تردد أغمضت عينى ومددت أصبع السبابة ليمر على مجموعة من الروايات المتراصة ثم وقف عند رواية فجذبتها فإذا هي رواية (لقاء هناك) لثروت أباظة.. ابتسمنا مندهشين من عناوين القدر.. ثم ذابت الابتسامة حين التقت عينانا فى قبلـة طويلة.. لم أستطع من روعتها أن تتحملها روحي فخفـضت عينيَّ.. وعندما شعرت بمس حلاوتها.. رفعت عينيَّ مرة أخرى فلم أجده.

صليت فى القائد إبـراهيم المغـرب فى محاولـة مـستميتة لاستدعاء السكينة.. وبعد الصلاة انسابت دموعي .. وقلت : لماذا يا جدتى لم تدركي الدعاء حين غمرك النور؟ لماذا خفت وترددت؟ ربما تغير شكل حياتى كله.

حين خرجت من الصلاة.. وجدتـه جالسًا فى كشك المصاحف يناقش البائع .. هدأت خطوتي حتى أملأ عينيّ منه.. أهو؟ نعم هو.. لا يملك هذه الطلة فى الوجود سواه.. لمحني؟هل مر على وجهه طيف ابتسامة؟ لا أعرف.. ارتبكت وحولـت وجهى وأسرعت خطوتي.. حتى كدت أصطدم بأحدهم فـإذا به أمامى مبتسمًا بنظرته الحانية.. ابتسمت فرحة وهمست لـه برجاء : ماذا تفعل بي؟ حين أمسك حبل الأمل لا أجـدك.. وحين يأخذني اليأس أجدك.. ابتسم أكثر وأهـداني مـصحفًا وقال : كل الذكريات الحلوة والمرة يمكـن أن تمـوت وربمـا نكرهها فى يوم من الأيام.. إلا المصحف فإنه خارج حـدود الكره أو النسيان .. فرحت جدًّا وتناولته بين يدي وقبلتـه.. فقال : ضعيه فى حقيبتك.

قالت النادلة فى ديليس : حين أتيتما للمرة الأولى.. التفتت نظرات كل الجالسين لكما.. فقد ظن الجميع أنـك أمـيرة.. كنت طاغية الجمال.. تفرش ابتسامة الرضا على شفتيك غلالة من النور تملأ المكان بالحبور.. أما هو فلم يكن رجل أليق بك فى الوجود منه.. أقسم لك إنني لم أر نظرة محب لحبيبته كنظرة عينيه لك.. يرد علينا المحبون كل يوم.. لم نر متحابين مثلكما.. عندما اقتربت منكما سمعتك تقولين له برجاء : أرجوك لا تنظر إلى هكذا.. قلت فى نفسي : ومن تملك أن ينظر لهـا حبيبـها تلك النظرة حتى تطلب منه ألا ينظر إليها.. وعندما رفع عينيه إلى يطلب القهوة ارتعدت أوصالي من أثر نظرة عينيه لـك..

فقلت فى نفسي : عندها حق , لا تنظر إليها هكذا. ثم سألتني: لماذا لم يعد يأتى معك؟ التفت إلى السماء وقد بدا الشفق يملأ الأفق , حتى غمر تمثال سعد زغلول حتى كاد يختفي , فتنهدت.

سحب لى كرسيًا فى المكتبة فجلست وجلس بجواري فقلت بخجل : نحن متقاربان جدًّا قال : يمكنك الابتعاد فقمت مبتعدة قليلا.. التفت فلم أجده.

قال لى : (الكبدة الإسكندرانى) فى تافرنا ليس لها مثيل.. أرشحها لغدائنا اليوم فوافقت مبتهجة.. كنا نتضاحك ونحن نطعم بعضنا البعض.. فنضع فى الشوكة مع (الكبدة) قطع الفلفل الحريفة.. تمر سحابة حزن فتقطع فجأة ضحكنا.. فنخفض رأسينا حتى تمر.. ونعود للضحك والغزل والكبدة الإسكندرانى.. فى آخر مرة خفضنا رأسينا لسحابة حزن لم نستطع أن نرفعها حتى الآن.

فى شارع النبي دانيال , كان الليل قد حل , وتزينت الشوارع بإضاءة مصابيح المحلات والأعمدة , الربيع يصافح الصيف بنسمات رقيقة , غلبني شوقي جدًّا فمررت بيدي على ذراعه حتى ألقيتها فى حضن يده فأمسك بيدي فى شوق بالغ فحضنت يده بيدي الأخرى وتشابكت أصابعنا , تطلع إلى عينيي فى وله ذائب وقال لى : أحبك , غمر النور وجهى واكتسح مسارب الحياة وأحزانها فى لحظة , قلت له بشوق

طاغ لقربه : حقًا؟ قال مبتسما وبنفس اللفظ : حقًا. ثم مـــال إلي فقبل خدي قبلة مدهشة , فتزاحمت الصور فجأة واختلطت الحروف , وبدا لعيني صورة جدتي.

ذهبت للصيدلية أبحث عن دواء لاحمرار وجـــنتيَّ الـــدائم , قالت الصيدلانية : بعد أن تأملت خدي كثيرًا , يوجد أثر قبلة ف خدك تحتاجين لدواء آخر , فاحمر خدي أكثر.

كان الصباح الباكر قد فرش بنسيمه العليل محطة الرمـــل.. حين انتويت أن أشرب قهوتي الـــصباحية ف ديلـــيس.. فقـــد غمرني النور وأنا نائمة وانشق عنا ف ديليس وقد قبل يدي قبلة حميمة جدًا.. فخجلت وقلت : تركت له يدي يا لجـــرأتي.. ثم تناولت موضع شفتيه ووضعت شفتي عليه.. فسرى ف أوصالي لذة حميمة من أثر ملامسة شفتينا لنفس الموضع.. خفـــت أن أحدث بها نفسي حين استيقظت.. ولكنها جذبتني هذا الصباح إلى فنجان القهوة ف ديليس.. كان الشارع خاليًا تماما من المارة حين التفت على الرصيف المقابل.. وجدته أمـــامي.. ذلـــك الساحر.. بنفس الحضور.. ونفس الجاذبية.. ونفس الـــشوق.. ماذا يفعل بي هذا الرجل؟ من أين يأتيني؟ تسمرت ف مكـــاني من وقع المفاجأة الصباحية الحالمة.. خفت أن أتحرك نحوه فـــلا أجد إلا السراب.. ولكنه عبر عن كيان وجوده , فعبر الطريق بلهفة حتى وقف أمامي.. ملأ عينيه من عينيَّ.. ثم فتح ذراعيـــه

بهدوء رومانسي واحتضنني وأمطرني بوابل من القبلات على وجنتيَّ وعينيَّ وجبيني وختمها بحلوة جميلة عميقة على شفتيَّ.. طرت من السعادة الاستثنائية الغير متوقعة فقد تيقنت من وجوده.. فتح لى الباب كأميرة ودلف ورائى وجلسنا نحتسى قهوة ديليس البديعة.. حتى غزت أشعة الشمس المكان فاستيقظت من النوم.

أمسك يدي فى المكتبة وقال : أرجوك لا تبتعدي كثيرًا فعدت للجلوس بجواره.. وكنا نقرأ رواية (لقاء هناك) حرفًا حرفًا.. ونحن متحاوران دافئان.. حتى أتت فتاة ريانة القد, صبيحة الوجه.. جلست قبالتنا.. فتوقفنا عن القراءة.

رائحة رجل



عندما لمست قدمه ساقي تدفقت الدماء فى جسدي كله.. شعرت أنى أحترق.. جذب قدمه بسرعة.. ظلت ساقاي فى مكانهما أيامًا وليالي طويلة كالواقف على محطة انتظار فى ليلة شاتية باردة حتى تعبتا.. هذا الرجل المتكور على السرير بجانبي لم يلمسني منذ ثلاث سنوات كاملة.. أكثر من ألف ليلة فشلت فى أن أجعل نفسي شهرزاد لشهريار الليالى الحالكة السواد قتلني فيها ألف مرة بألف طريقة مبتكرة.

لا أذكر على وجه التحديد من أين ابتدأنا.. ربما كان ذلك اليوم الذى تشاجر فيه مع شاب غازلني فى الطريق ببجاحة وأنا سائرة معه وانتهى بنا المطاف إلى قسم الشرطة وكانت الطامة الكبرى أن الشاب كان إبن أحد قيادات الشرطة المعروفين فتسابق الجميع لإظهار ولائه وكان أعلى مظاهر الولاء تلقى زوجى لصفعة على وجهه أمامي.. سكن الكون من حولنا للحظة.. نظرت فيها إلى زوجى كان ذاهلا عاجزًا وقبل أن

يكون له أى رد فعل كان صوتي يشق الفضاء فى وجه هــؤلاء السفلة المجانين ويبدو أنهم فوجئوا برد فعلى فخافوا من شيء ما فأسرعوا لتهدئتي وتقديم اعتذار باهت.. حاولت فى إحدى هذه الليالي أن أسرى عنه.. أجهد نفسه قدر الطاقة و لم يــستطع.. سايرته فى ضحكه على الموقف و لم يخف علـــى اضــطرابه وخجله.

مرت الأيام وسارت الحياة وظل شيء واحــد متوقفًــا لا يستطيع تجاوزه ظننت فى البداية أنه بدأ يملني حاولت التقــرب منه بشتى السبل.. كان يزداد نفورًا.. ابتعدت عنه فترة لعلــه يشتاق إلى.. ظل كالتمثال يشاهد الأحداث كلها بوجه واحد لا يتغير.. أثرت مرة غيرته.. مرة واحدة فقط.. لم أكررها لأن رد فعله كان مفاجأة.. ضربني ضربا مبرحا.. كان قاسيا على غير عادته شعرت وهو يضربني بأنه يريد إذلالي فقط.. كانت أول مرة يمد يده إلى بالأذى.. أغلق باب الغرفة علـــى نفـــسه بعدها وظل يبكى طول النهار رافضا كل محاولاتي بجعله يفتح الباب.. كنت أشعر أنني أنا التى دفعته لذلك فأردت الاعتذار.. وفى اليوم التالي أحضر لى هدية غالية واعتذر لى.. ظل الحــوار بيني وبينه حول هذا الموضوع مغلقا تماما فقد رفض مناقــشته تصريحا أو تلميحا.

ثلاث سنوات كاملة لا أدرى من أين ابتدأنا ولكنني أعرف يقينا إلى أى شيء انتهينا, زحف الشتاء إلى حياتنا يفترس كل

ليالي الدفء والقرب دون أدنى مقاومة منه تــذكر.. تــرك لى الوحدة والألم تعشش فى أجزائي حتى تعودت بمرور الأيام على هذا الوضع وانطبقت على مشاعرى وأحاسيــسى وكيــاني.. وكما في النظرية التى تقول أن العضو الذى لا يستعمل يــضمر ويموت.. هكذا بدأت تموت بداخلى الأحاسيس الأوليــة لأى امرأة فى أى مكان فى العالم بأنها مرغوبة لدى شــخص مــا.. وأنها ربما لا يهمها أن تنال رغبة حسية بقدر ما تريــد هــذا الشعور الجارف فى النفس بأنها محور أمنية شخص تحبه وأنهــا شمس يدور فى فلكها.. نعم أكثر من ألف ليلة بــاردة جافــة عنيدة عشتها حتى لمست عن دون قصد قدمه ساقي.. لا أدرى ماذا حدث؟ اندفع كل عطش السنين إلى عروقي لماذا أعــادتني هذه اللمسة غير المتعمدة إلى نقطة البداية؟ نقطة رفضي الــتى انزوت وانتهت وماتت أمام زحف الــصمت والانــسحاب والتكور التى عاشها زوجى دون أدنى إحساس بى..هذا الوحش الذى لم يستطع أن يدافع عنى انقلب هذا الرفض إلى ليفترسني أنا.

جلست فى عملي متوترة جدًا.. أتأمل زمــيلاتي واحــدة واحدة من منهن أستطيع أن أبوح لها بمــشكلتي؟ ثم تنــصحني بأمانة هذه؟ إنها أرملة.. ماذا عساها أن تقول لى؟ امرأة ماتت كل احتياجات الأنثى فيها مع موت زوجها, لأن أهله هددوها

بحرمانها هي وأولادها من ميراثه وطردها من المـأوى الـذى يأويها عندهم إذا فكرت في الزواج وهم قادرون علـى فعـل ذلك.. نصحها أهلها بأن تستجيب لهم حتى يـستفيدوا هـم كذلك ورفضت كل من تقدموا لها وكفنت مشاعرها وتحول وجهها بمرور الزمن إلى وجه رجل عابس غير أنه بلا شارب.. أم الجالسة فى آخر الغرفة؟ زميلة لها قضية طلاق لم يبت فيهـا منذ عشر سنوات ذاقت فيها الذل والهوان من دعاوى كيديـة بالسرقة وتبديد المنقولات إلى التشهير بها وأهلها.. لم يبق أحد أستطيع أن أسأله أو أبوح له بالبركان الثائر بداخلي .

عندما أتت أمي لزيارتنا ارتميت فى حضنها تسبقني دموعي ابتسمت فى حزن وقالت: لا تتعبي نفسك يا بنتي هذه مشكلة ليس لها حل هذه أشياء يا ابنتي لا تتكلم فيها النساء و المـرأة التي تثير ذلك تجلب العار لأهلها وربما انتهى الأمـر بـالطلاق وتلك هي الطامة الكبرى.. تحولت أمي فى لحظة واحـدة إلى امرأة مثلي لم أعد أشعر بأنها أمي التي سأجد لديها الحل ككل الأمهات ابتعدت عنها ظلت تكلمني عن ابنتي بأن أجعلها محور اهتمامي لعلي أجد فيها العوض عن سنين الحرمان.. هكذا يـا أمي نتوارث أنا وأنت وابنتي الألم وربما تناولتيه أنت أيضًا مـن جدتي التي تناولته من أمها وهكذا صارت أمي تتكلم وتنصحني أنا لا أرى سوى شفتيها تنفتحان وتنغلقان بكلمات تزين فيها الحرمان والألم والمرارة وكرامتي المهدرة.

شيء ما يدفعني لأجد حلا لهذا الوضع نعم لقد حاولت من قبل ربما أخطأت فى محاولة الحل ولكن هذا لا يمنع أبدًا من تكرار التجربة بشكل أعمق.. ماذا على لو اشتريت كتابا يتحدث عن هذا الموضوع؟ فكرة ممتازة أين كانت منذ ثلاث سنوات؟ غير أن هذه الفكرة سرعان ما تحولت إلى مشكلة هي الأخرى عندما وقفت أمام مجموعة من الكتب كل عناوينها تتحدث عن مشكلتي ولكن لم تجرؤ يدي أن تمتد إلى واحد منها خجلا من العاملين فى المكتبة.. ذهبت إلى أكثر من عشر مكتبات مثيرة فى نفسي مشكلتي بكل أبعادها حتى أتشجع على تناول كتاب فى يدي أنظر حتى فى فهرسه ماهى إلا لحظة صغيرة وينتهي كل شيء.. كانت شجاعتي هذه تموت بمجرد وقوفي أمام الكتب.. كرهت نفسي و زوجي وعجزي.. وعجزه. شعرت هذه المرة بسيل من العرق البارد يتدفق من جسدي الساخن المضطرب من الخجل وأن كل الناس السائرين حولي والنساء المتدلية من النوافذ والباعة الجائلين والدواب والهوام والمتسكعين بجوار كابينة الهاتف يسمعون كلامي المضطرب الذى أبثه لطبيب قرأت إسمه ورقم هاتفه فى زاوية حل المشكلات بإحدى المجلات.. الطبيب لا يكاد يتبين كلماتي فيطلب إعادة بعضها يختلج لساني وتضطرب حنجرتي فى المواءمة المؤلمة بين مخارج الحروف ومستوى الصوت.. اقترب

أحد الواقفين ليضغط هو الآخر على فتات أعصابي الباقي لأترك له الكابينة وعندما التفت إليه كان وجهى كله يتصبب عرقًا يبدو أنه أحس بشيء غير عادى فعاد إلى وقفته البعيدة.. ظل الطبيب يسألني أسئلة فى منتهى الحرج حتى انتهى المطاف بطلب يستحيل تنفيذه أنه يريد أن يرى المريض فلما أخبرته بصعوبة ذلك أغلق فى وجهى آخر أمل فى النجاة بأن على مريضي أن يكون عنده من الشجاعة والجرأة أن يتجاوز هذا العجز النفسي, لأن مشكلته بسيطة جدًا وقد عالج حالات مشابهه ويجب عليَّ إقناعه بهذه الخطوة الهامة فى حياته.. يبدو أن هذا الموقف قد أثار أعصابي لدرجة أنني تجرأت وتجاوزت كل الخطوط الحمراء التى وضعها زوجى حول هذا الموضوع وكلمته مباشرة أن يجد لنا حلا حتى ولو بالذهاب إلى طبيب.. نظر إلىَّ باحتقار شديد.. لم يهتز ثم تركني وانصرف ولم ينم بعدها فى الحجرة أبدًا. أصبحت تلازمني عادة غريبة منذ فترة ليست بالقصيرة.. كنت واقفة أغسل ملابس زوجى عندما شممت رائحة ملابسه استمتعت كثيرًا ببقايا جسده التى تركها على ملابسه.. صارت كل قطعة من ملابسه تمر على أنفى فيهتز جسدي طربًا لهذه الرائحة فأشمها بعمق وأحتضنها ثم أضعها فى المغسلة.. ازداد هذا الأمر حتى صرت لا أنام إلا وأنا محتضنة قطعة من ملابس زوجى مستمتعة ببقايا رائحة جسده..

ولكنى لم أتخيل أن يتطور هذا الأمر معى لدرجة أننى إن لم أجد أى قطعة ملابس له أظل طوال النهار فى حالة ضـيق شـديدة وربما ضرب رأسي صداع رهيب لا يهـدأ إلا عنـدما أجـد ملابس قد تركها زوجى للغسيل .

هذا اليوم لم تتوقف دموعي.. شعرت بانكـسار نفـسي وهوالها وانحدارها إلى درجة أننى اشتهيت رائحة عرق زميل لى فى العمل كانت رائحته قبلا تثير اشمئزازي اليوم وقف بجـانبي ليريني بعض الأوراق تعمدت أن أطيل وقفته ورحـت أمـلأ صدري من رائحته كيف فعلت هذا؟ شعرت أننى إحدى إناث حيوانات الشوارع التى تثار غريزتها بالرائحة.. بحثـت عـن ملابس لزوجي وجسدي ينتفض من المرارة وتلحفت بها ونمت.

وفى اليوم التالي وجدت نفسي أمـارس هـذا الإحـساس باستمتاع غريب مع أكثر من رجل جاء ليقـضى حاجـة فى مكتبنا.. أصبحت بمرور الأيام أمارس هذه الفعلة بدون خجل من نفسي وبدون أن ألومها كما كنت أفعل من قبل.. شـيء واحد كان يسبب لى القلق والحيرة هل ما أمارسه حالة مـن حالات الإدمان أم الحرمان؟ كان سؤالي الذى يلاحقني وأنـا وحيدة فى غرفة نومي ولا أجد له إجابة ولا أستطيع أن أسـأله لأحد هل ما أفعله هو خيانة؟ وجدتني فجأة أتحدث مع نفسي بصوت مسموع أحاول أن أقنع نفسي بأنني لا أفعل شيئا شاذًا وأنه يمكن للإنسان أن يغلق عينيه أو أذنيه أو حتى فمه ولكـن

أن يغلق أنفه فهذا هو المستحيل.. ثم صرت أضحك بصوت مسموع وأنا أتخيل أنني ذهبت إلى السوق لأسأل عن كمامات واقية من رائحة الرجال أو أنني أسير في الشارع بكمامة واقية, و لم يقطع ضحكي سوى دخول زوجي المفاجئ عليّ عندما سمع صوت قهقهتي.

هل طال الصمت بيننا أم قصر؟ لا أدرى.. فالليل منذ آلاف السنين في حياتي في رحيل دائم مع الصمت.. جلس على طرف السرير كان قريبا بدرجة تسمح لى باستنشاقه دون أى تأنيب لضميري .. نظر إليّ باحتقار شديد و قال لى بصفاقة: لم تخلق بعد المرأة التي تذلني أو أن تشعرني أنني عاجز.. أستطيع أن أتزوج ألف امرأة عليك.. و المرأة التي تشعرني بذلك ثم تنام في غرفتها تتكلم عني هازئة بي ضاحكة من عجز هي السبب فيه لا تستحق أن تعيش معي.. لقد تحملتك كثيرا من أجل ابنتنا ولكن يبدو أنك مصرة على إشعاري بالنقص وهذا ما لا أستطيع تحمله.. قومي الآن وبهدوء ارتدى ملابسك وانصرفي إلى بيت أبيك حتى تصلك ورقة الطلاق.

كان فمي فاغرا وكل خلجة في جسدي ترتعش, خرس لساني و لم أستطع أن أنطق.. فمد يده إلى غطائي فكشفه عني لأقوم.. فوجئ بكمية من ملابسه متناثرة حولي وأخرى محشورة داخل ملابسي متدلية أطرافها من أكمامي وصدري وعند قدميّ فجن جنونه وكأنه شاهدني أنام مع رجل غيره فجذبني بشدة وأخذ يصفعني على وجهي صارخا: شاذة..

شاذة.. امرأة شاذة.. كيف أأتمنها على بيتي؟ أخرجي من حياتي أنت طالق.. طالق .. طالق.. لو عدت إلى هنا سأفضحك سأجعل الناس كلها يتكلمون عنك سأمرغ سمعتك وسمعة أبيك في التراب.

كانت صفعاته تدوي في نفسي وعلى وجهي ظللت أتعمد الاقتراب منه وهو يصفعني رائحة هذا الرجل تملكني لماذا يحرمني منها لماذا؟ ألم يكفه حرماني منه واقتربت أكثر وأكثر وهو يتراجع ويصفعني حتى ارتميت على جسده ومرغت وجهي وأنفي في رائحته كأنني إنسان مدمن يكاد أن ينتهي في لحظة حتى وجد بغيته.. تشبثت بجسده بقوة لدرجة أنه لم يستطع أن يبعدني عنه ورحت أعب من رائحة جسده بأنفاس متلاحقة لاهثة جائعة حتى هدأت نفسي بعد أن نلت متعتي الوحيدة في هذه الحياة الباردة القاتلة.. كان وجهه جامدًا كقطعة من الصخر بلا أي تعبير هل كان خائفًا أم ذاهلاً؟ قمت بهدوء وارتديت ملابسي وحملت حقيبتي ثم خرجت من بيتي.

كانت الأضواء الشاحبة المتدلية من أعمدة الكهرباء تحاول أن تمزق هذا الظلام الذي يكتسح الطريق الطويل.. الهواء البارد يلفح وجهي بقسوة.. ضممت ملابسي على جسدي لأحميه من رعشة سرت فيه ووقفت في محطة انتظار لحافلة تقلني ولا أعلم هل في هذا الوقت من الليل تأتي الحافلة أم سأنتظر طويلاً؟ لا أدري لماذا كنت أغالب ابتسامة تكاد تتسع لتصبح ضحكة فقهقهة وأنا أتخيل شكلي عندما رفع زوجي الغطاء عني

فوجدني كمهرج السيرك وملابسه حـــولي وبـــداخل ثنايـــا جسدي, ثم وأنا أندفع له وهو يضربني هل كان هـــذا شـــوق السنين؟ اندفعت دمعة صغيرة دافئة على خد الابتسامة ثم تبعتها أخرى حتى غطت الدموع وجهي كأنها تقبلني قبلات حانيـــة تطيب بها خاطري اتسعت ابتسامتي وسط طوفان الدموع وأنا أتذكر فجأة عجزي عن مد يدي لكتاب قد يحل مشكلتي.. ما الفرق بيني وبينه.. عاجز.. وعاجزة.. تتراقص الدموع الثخينة على وجهي من القهقهة وأنا أتخيل أني ذهبـــت للمستـــشفى لعلاج الإدمان هل سيعطونني جرعات مخففة من رائحة الرجال حتى ينسحب المرض من الجسم؟ أم.. أم.. إنني جائعة جـــدًا.. تذكرت الآن أنني لم أتذوق الطعام منذ الصباح.. لشد شـــوقي الآن إلى طعام ساخن.. وفراش دافئ.. ورائحة رجل.

إيهـــاب الجـــن



اصطف إيهاب فى الصف للصلاة بجواري واضعًا القـــدم فى القدم والكتف فى الكتف كما وجهنا الإمام.. ثم رفع يديه إلى مستوى أذنيه وأغمض عينيه بخشوع وبصوت هامس لا يسمعه سوى من يقف بجانبه من أقرانه قائلا : نويت أصـــلى أربـــع ركعات فرض صلاة الظهر حاضرًا فى الصف الثالـــث جنـــب الحمار.. ثم يرفع يديه مكبرًا تكبيرة الإحرام قائلا بتقعر واضح للحروف : (الله أكبر).. فلا يملك من يقف بجواره نفسه من ضحك لا يلبث أن يسرى بين باقي الأقران الواقفين فى الصف والغريب أن سر الضحك عندما يتلـــبس أحـــدًا فى الـــصلاة لايستطيع أبدا السيطرة عليها.

هكذا كان إيهاب يدخل الصلاة ونحن فى مطلـــع حياتنـــا صغارًا حيث يتعمد الوقوف بجوار أحدنا ليضحكه.. وهو على الأرجح لم يكن يصلى.. ولكنه كان يفعلها فقط مـــن بـــاب اللعب والتهريج.

إيهاب الجن.. هكذا كنا ندعوه ونحن صغار وبعدها اشتهر بهذا الاسم فى الحي كله والأحياء المجاورة.. لتاريخه الذى نسجه بيديه منذ صغره بالشقاوة والإجرام.. قريننا فى السن والشارع آتاه الله بسطة فى الجسم والجرأة من مطلع حياته.. يظن من رآه أنه أكبر من عمره.. كان كلما كبر يومًا ازداد جـرأة وقـوة وبطشا لا يهمه أحد صغيرًا كان أم كبيرًا.

حين كنا نخاف من دخول المدرس إلى الفصل كان هو يعد له مقلبًا هستيريًا.. نرتجف عندما يدخل حـضرة النـاظر إلى الفصل أما هو فقد كان يتعمد القيام بحركات مضحكة تخرجنا عن شعورنا فنلقى بسببه التأنيب والعقاب.

دخل مرة مفتش اللغة الفرنسية للفصل ففوجئنـا بإيهـاب الجن قد رفع أصبعه بثقة متناهية يريد الإجابة على السؤال الذى طرحه المفتش على الطلاب.. وألح على المفتش بطريقة أذهلت مدرس اللغة الفرنسية الذى لم يتلق ولا إجابة واحدة من إيهاب على أى سؤال وجه إليه طول العام الدراسي.. وعندما وقـف إيهاب للإجابة على سؤال الفرنساوى نطـق بمجموعـة مـن الحروف المتراكبة ذات الإيقاع الفرنسي بسرعة كبيرة مكونًـا جملا لا معنى لها فى أى لغة من لغات العالم مما أدهش المفـتش والأستاذ.. وتعجبنا كيف عرف إيهاب كل هـذه الكلمـات

الفرنسية ومن أين أتى بهذه الطلاقة؟ وحين انتهى من وصـلة الرد على السؤال ساد صمت مطبق فى الفصل.. اقترب منـه المفتش بهدوء ووضع يده على كتفه برفق وسأله : ما هذا الذى تقوله يا بنى؟ فقال بثقة مدهـشة وهـو يـشير إلى مـدرس الفرنساوى : هذا الديالوج الثالث الذى درسه لنا الأسـتاذ فى الدرس الخصوصى بالأمس ولم نخرج من حجرة الدرس إلا وقد حفظناه عن ظهر قلب.. فحدج المفتش الأستاذ بنظرة قاسية فى حين أغمض المدرس عينيه بعصبية وهو يهز رأسـه فى أسـى. وفعلها مع موجه اللغة العربية حين دخل فى حصة النـصوص وكان اسم النص الذى ندرسه تجارب الحياة للشاعر أبي الطيب المتنبى.. ومن حظ المدرس السيئ أن الموجه أوقف إيهاب الجن ليسأله سؤالا بسيطًا جدًّا : ما اسم النص الذى تدرسونه اليوم؟ فقال إيهاب بثقة مضنية : تجارة الحياة.. وما إن نطـق بهـذه الكلمة حتى علا وجه المفتش الدهشة ثم نظر للسبورة ليتأكد أن الكلمة مكتوبة تجارب الحياة وليست تجارة الحياة.. ثم التفـت إلى إيهاب وسأله ليتأكد من اسم النص؟ فقال إيهـاب بثقـة أكبر: تجارة الحياة.. سكت الموجه قليلا ثم قال : ومن مؤلـف

نص تجارة الحياة أيها التلميذ النجيب.. فقال بسرعة وقـــوة :
ألف نص تجارة الحياة الشاعر الكبير المتلبى.

نشأنا معًا فى حى واحد.. نـــسكن فى نفـــس الـــشارع.. ودخلنا المدرسة معًا.. وكبرنا معــا حـــتى دخلنـــا الثانويـــة العسكرية.. كان نجم المدرسة الأول بلا منـــازع فى الفتـــرات القليلة التى كان يأتى فيها للمدرسة.. فتـــارة يـــأتى المدرســـة بجلباب وشبشب.. وتارة نجده أمام المدرسة يبيع فاكهة علـــى عربة يد.. وتارة يأتى ببدلة كاملة وكرافت.. لم يرتد أبدًا زى المدرسة العسكري ولم يتجرأ احد من ضـــباط المدرســـة ولا المدرسين على مراجعته فقد كان طويلا جسيمًا عليه قوة وجرأة لا تخفى على أحد... تجعل كل من يحاول الاقتراب منه يفكـــر ألف مرة قبل أن يضع نفسه فى موضع لا تحمد عقباه مع طالب فى المرحلة الثانوية. لم يترك منكرًا منذ أن بلغ الحلم إلا وفعله.. صاحب النساء وشرب الخمر.. لعب القمار.. وحين يدخل فى معركة على أثر خلاف ما مع أحد المجرمين.. كـــان يفترســـه حتى لو كان أكبر منه فى السن أو الإجرام.

وفى الصف الثالث الثانوي مات أبوه فجأة بعد إصابته بذبحة صدرية إثر معركة كلامية مع إيهاب تطاول فيهـــا بألفـــاظ لا تليق مع أب فوقع على الأرض مغشيًا عليه وما لبث أن فـــارق

الحياة.. وورث عن أبيه تجارة رائجة فى الحبوب.. وتوقع الجميع انهيار هذه التجارة وإعلان إفلاسها فى غضون شهور قليلة.. ومن العجيب أن إيهاب خيب كل التوقعات.. فقد راجت التجارة واتسعت أكثر وأكثر.. برغم أنه لم يتخل عن غلظته وجبروته أبدًا.. ولا عن السهر وتناول المخدرات.. ومصاحبة الساقطات وترويع كل من يفكر فقط أن يعترضه.

منذ تلك اللحظة افترقت بنا الحياة برغم أننا نعيش فى شارع واحد.. وخفت سيرته مع الأيام فلم نعد نذكره إلا على سبيل التفكه والتندر فقط.. فقد سلك كل منا طريقًا مختلفًا تمامًا.. هو أكمل طريقه فى التجارة وأنا اخترت المسجد طريقًا لى فانضممت لجماعة الإخوان المسلمين.. كنا نعود إلى الشارع فى الإجازات الصيفية فنمارس أنشطتنا فى مسجد الحي فنحفظ الأولاد الصغار القرآن الكريم ونمارس بعض الأنشطة فى الحي فنقوم بنظافته وتجميله.. وخدمة أهل الحي الفقراء فنجمع الطعام والكساء من الأغنياء فنعطيها لهم وغيرها من الأنشطة التى تحدث حركة جميلة فى حينا.. كل هذا يتم أمام المعلم إيهاب دون أن يتحرك من مكانه أو يتفاعل مع شيء فقد كان دكانه مواجهًا للمسجد ومع ذلك كنا نتجنبه تمامًا خوفًا من رد فعله الذى لا يتوقعه أحد.. لم يكن بيني وبينه سوى تحية عابرة إذا تواجهنا من قريب فيرد التحية أولا يرد كأننا أغراب لم يعرفني يومًا ولم نجلس لسنوات طويلة متجاورين فى سنوات دراستنا الأولى.

لم نلحظ ونحن وقوف أمام المسجد نتشاور فى مشكلة كبيرة أن إيهاب الجن كان يرقبنا باهتمام.. وحين انصرفنا كل فى طريقه فإذا بصوته الخشن ينادى على باسمى.. فوجئت.. ثم اندهشت.. ثم ارتجفت ثم انتبهت على ندائه الثاني فالتفت مبتسما..

جلست بجواره ودون أن يسألني طلب لى قرفة بالزنجبيل.. ثم التفت إلى قائلا : ماذا ستفعلون فى هذه المشكلة؟ فاجأني هذا الاهتمام ونظرت إليه نظرة متفحصة محاولا أن أفهم مغزى السؤال ثم تجرأت فى نفسي فطمعت فيه.. قلت : الأمر هذه المرة كبير علينا.. الطفلة تحتاج لعملية جراحية عاجلة ستتكلف الكثير جدًا وما نجمعه لا يكفى أبدا لإنقاذها.. فاجأنى للمرة الثانية مفاجأته المذهلة قائلا : أنا سأتحمل تكاليف العملية كاملة.. لم أضع الوقت فقلت له : بشرط.. قطب جبينه وقال شبه غاضب : شرط؟ فقلت بسرعة : أن تأتى معنا وتدفع بيدك كل مصاريف العملية وترى الطفلة والأطباء والمستشفى.. قال: أنا أثق بك.. قلت : المسألة ليست ثقة وفقط.. ولكن إذا كنت تفعل ذلك لوجه الله, فالله سبحانه وتعالى يحب أن يراك تفعل ذلك بنفسك.

كان الإخوان فى المسجد فى منتهى الذهول حين رويت لهم القصة... قال لى أحدهم ضاحكًا : إيهاب الجن؟ لو أسلم حمار الخطاب.. وقال الآخر: أشك أنه سيتبرع رأيته مرة يصفع

شحاذًا على وجهه طلب نصف جنيه.. إنه يتلاعب بك.. وقال ثالث : دعونا نرى كيف سيفعل.. قال الرابع : موعد العملية اقترب ونحن ننتظر.. اختلط الكلام وتشعب حتى قلت حاسمًا الأمر: ليس أمامنا الآن غيره سأذهب إليه الآن.

مافعله إيهاب الجن فى المستشفى فاق كل تصوراتنا.. كنا نطمع أن يدفع مصاريف العملية بيده فقط ولكنه فعل أكثر من ذلك.. فقد استقبل الطفلة وهى محمولة على السرير وداعبها وضحك لها ثم مال عليها وقبلها فى مفاجأة مذهلة أنست حتى أهل الطفلة ما هم فيه من محنة.. ووزع الأموال على الممرضات ليعتنين بها أفضل عناية.. ووقف ثلاث ساعات كاملة معنا أمام غرفة العمليات حتى خرجت الطفلة.. وعندما ارتمت أمها عليها تقبلها لم يستطع تحمل المشهد فانزلقت دمعة من عينيه رغما عنه.. فداراها بعصبية ومسحها بسرعة.

عاد إيهاب الجن إلى جلسته أمام دكانه المقابل للمسجد الشيشة لا تفارق شفتيه ونفس ملامح الغلظة البادية على وجهه.. أمر عليه فألقى التحية بجرأة أكثر فيرد دون حتى أن ينظر إليَّ.. كأن كل ما حدث كان حلمًا أو خيالا.. وعادت الحياة لمجراها الطبيعي وكل الأحاديث التى قيلت فى شارعنا بتعجب عن موقف إيهاب الجن فى المستشفى أودعها هو فى طي النسيان بجبروته وغلظته مع الناس.

ما إن بدأت مفاجأته الأولى تدخل إلى طي النسيان حتى فوجئنا به واقفًا بيننا فى وسط المسجد هكذا فجأة.

كنا فى حلقات تحفيظ القرآن مع الأشبال حين دخل مخبر من أمن الدولة ووقف وسط المسجد وقد علا صوته طالبًا منا الهويات الشخصية منذرًا متوعدًا باعتقالنا جميعا لمجرد أننا نحفظ الأطفال الصغار القرآن.. وقد ركبنا جميعا الخوف فران علينا صمت مطبق فعاد المخبر للصياح مهددًا بالاتصال بمديرية الأمن للقبض علينا الآن وأخرج هاتفه وبدأ فى إجراء اتصال.

وفجأة دوت صفعة هائلة على وجه مخبر أمن الدولة فأوقعته على الأرض.. فالتفت فإذا بإيهاب الجن بطوله وعرضه الذى انحنى إليه فرفعه بيد واحدة واستمر فى صفعه صارخًا فيه: ملعون أبوك وأبو اللي أرسلك ثم جذبه من قفاه وقذفه خارج المسجد مكملا صراخه : لو رأيتك هنا سأعلقك من قدميك فى وسط الشارع ثم التفت إلينا والشرر يتطاير من عينيه قائلا : يا جبناء .. يا جبناء ما تفعلونه صحيح أم خطأ؟ فلم يجب أحد من هول المفاجأة فقال كأننا أجبنا بنعم : كونوا رجالا لا تخافون من حشرة مثل هذا.. خيم الصمت علينا فلم يقطعه سوى صوت المؤذن لصلاة المغرب.

حين اصطف إيهاب بجواري للصلاة وتهيأنا لتكبيرة الإحرام جاءني الابتسام وتذكرت كيف كان يتعمد الوقوف بجواري

ليضحكني.. أما هو فقد وقف للصلاة متصلب الجسد كأنما يخشى أن يرفع يديه مستسلما لله.

لم نره بعد ذلك في المسجد و لم يأت للصلاة مرة أخرى.. فكرت كثيرًا في هذا الرجل محاولا أن أجد مفتاحا لهذه الشخصية حتى قال لي أحد مشايخنا : هذا الرجل فتح لكم بابًا فلا تغلقوه عليه ببحثكم عن أبواب أخرى.. باب الإنفاق.. رمضان على الأبواب أمامكم فرصه عظيمة فلا تضيعوها وتضيعوه.

كأنني عثرت على جوهرة ثمينة من جواهر الحياة النادرة تشجعت وتجرأت وقذفت بنفسي عليه فاستقبلني متفاجئًا قلت له مازحا : ممكن أشرب قرفة بالزنجبيل؟ فابتسم لي لأول مرة في حياته وقال : ولو أنك لاتستحق.. قلت : لماذا؟ قال : لا أحب الجبناء.. قلت : وقد شعرت بانبساط الحديث : ليس كل الناس أقوياء مثلك قال وقد بدا عليه الضيق : صاحب الحق لا يجب عليه أن يخاف.. قلت : كان عمر بن الخطاب قويًا يحتمي الصحابة به.. قال : ولكنهم لم يكونوا جبناء أبدًا.. قلت مستسلمًا : عندك حق.. قال : أهلا وسهلا كأنه يقول ماذا تريد.. قلت له : كل عام وأنت بخير رمضان على الأبواب.. قال : بتحفز وأنت طيب.. قلت : مجترئًا أكثر عندنا

بيوت فقيرة لا يعرف عن فقرها أحد.. ونريد أن نـــوفى لهـــا
احتياجاتها مع دخول رمضان.. أشرق وجهه بسرعة كأنما عثر
على كنز قائلا : أنا تحت أمرك فى كل ما تحتاجونـــه قلـــت :
بارك الله فيك وتقبل منك.. ولكنك ستأتي معنا قال : أيـــن؟
قلت : لهذه البيوت.. فتعطيها بيدك وترى كيف يفرح النـــاس
بالفرج.. قال : مستحيل.. كنت أعرف أن ذلك صعب عليه
خاصة مع تاريخه الأسود.. فقلت : عادة نحن نذهب بعد صلاة
العشاء حتى لا نجرح هذه البيوت.. فكر ورد على بغير ذلك لن
نأخذ منك شيء.. لم يرد على وأشاح بوجهه كأنمـــا ينـــهى
المقابلة. هل أخطأت حين اشترطت عليه؟ هل أغلقـــت بـــاب
الخير عليه باستثارة عناده؟ ندمت أني فعلت ذلك أيما نـــدم..
وهممت أكثر من مرة أن أذهب إليه ولكن ماذا أقول له.. وهو
لم يعد يعيرني أى اهتمام.. ولم يعد يرد حتى على تحيتي لـــه..
الأيام تتوالى ورمضان أوشك على الدخول وقد جمعنـــا بعـــد
مجهود مضن بعض الأموال التى تكفى بالكـــاد البيـــوت الـــتى
رصدناها.. حتى كانت ليلة رمضان فوجئت بعامل يعمـــل فى
وكالته يقول لى : الحاج ينتظرك قلت بفرح مضطرب : يا فرج
الله.. أسرعت إليه وجدته واقفًا أمام باب الوكالة بهامته الطويلة

مرتديًا جلبابًا أبيض فضفاضًا وقد جهز السيارة وقــال : هيــا بنا.. قلت له : إلى أين؟ قال : إلى البيوت التي حدثتني عنــها.. قلت بتلقائية سعيدة : الله أكبر.. قــال هازئــا : ســنبدؤها بمظاهرة؟ هيا لا تضيع الوقت.

كان أول بيت دخلناه لامرأة هجرها زوجها ولديها ســبع بنات.. كانت تعرفنا ولكنها فوجئت بإيهاب الجــن فبادرتهــا قائلا الحاج إيهاب جاء ليطمئن عليكم قالت مندهشة : أهــلا وسهلا.. قال لها إيهاب بتلقائية أولاد البلد : ماذا أكلتم اليوم؟ قالت : فول نابت والحمد لله.. فأخرج لها مائة جنيه فناولها لها ثم ناول البنات كل واحدة مائة جنيه.. وحمل الصغرى وقبلــها وأعطاها مائتي جنيه كان رد فعل الأم كبيرًا تحركت باضطراب غير مصدقة ثم ضحكت شاكرة وقد تجمعت الدموع في عينيها بسرعة كبيرة حتى انفجرت بالبكاء.. لم يحتمل إيهاب رؤيتــها على هذه الحال فولاها ظهره باضطراب واضح ثم تحرك نحــو الباب قائلا : كل عام وأنتم بخير.. لحقت به وهمست له : هذا كثير جدًّا قال بغلظة : لاشأن لك.. اشترطت أن آتي معــك وأتيت فلا تتدخل فيما أدفعه.. فسكت وتركته يفعل ما يريد.. ظل طوال الجولة صامتًا شاردًا يرقب فرح الأطفال بابتــسامة حزينة.. وظل على صمته حتى انتهينا من زيارة كل البيــوت

التي رصدناها وعندما عدنا إلى شارعنا التفت إليــه وقلــت : جزاك الله خير الجزاء وغفر لك.. لم يرد على دعائي سوى أن قال : بصوت جاف متحشرج لو علمت أنك ذهبت بــدوني لهذه البيوت لقتلتك.. كل ما يحتاجونه فى رقبتي حتى أموت.. قلت فى نفسي أعطاك الله طول العمر.

انتظم إيهاب الجن فى الصلاة من فجر أول أيام رمــضان.. راقبه الناس باهتمام وتوجس لا يكلم أحدًا ولا يقتــرب منــه أحد.. وبعد عدة أيام دعوته لإفطار فى المسجد نقيمه لأهــل الحي.. فسألني : من الذى دفع ثمن الإفطار؟ قلت له : كلنا.. قال : كيف كلكم؟ قلت : الجميع يتشارك بما يستطيع.. نفعل ذلك كل عام.. قال : تفعلون ذلك كل عــام ولا تــدعوني؟ ستدخل جهنم من أوسع أبوابها قلت مبتسمًا : ها أنا أدركت نفسي وأتيت لأدعوك.. قــال : أنــا ســأتكفل بــه.حــح . قلت : فات الوقت الفطور تقريبا جاهز قال : خلاص الجمعة القادم تقيم إفطارًا على حسابي سأذبح عجلا لهذه المناسبة قلت : اتفقنا.

كنت أشعر أن إيهاب الجن يستقبل حياة جديــدة عليــه.. كأنه ينسلخ من ماضي ليستقبل أيامًا جديدة عليه.. كان يؤدى الفرائض المكتوبة فقط لم يزد عليها شيئا.. كانت كل الحواجز

بيننا قد أزيلت وأصبحت ألقاه يوميًا فقد كان يرسل فى طلبي ليسألني عن البيوت والفقراء.. لم تتطرق أحاديثنا لغير ذلك وكلما حاولت الاقتراب من مشاعره يصدني بصمته وأحيانًا بأن ينهرني قائلا : انشغل بنفسك.. ومع ذلك كنت أشعر بعاطفة خاصة بيننا تؤهلني لأن أغوص أكثر فى أعماقه ولكن متى تتسنى لى هذه الفرصة؟

بدأت ليالي العشر الأواخر فدعوته ببساطة لأن يصلى معنا التهجد فابتسم ساخرًا وقال : الآن تذكرت أن تدعوني للتراويح والتهجد؟ قلت متجاوزًا ذكر التراويح كأنه يعاتبني : أنت لا تدع لى فرصة.. قال : كنت أتمنى أن تكونوا أقوى من ذلك.. ماذا كنت سأفعل لك لو أنك دعوتني؟ كنت سأبطش بك مثلا؟ هب أن ذلك حدث.. أليس عليك أن تتحمل فى سبيل دعوتك.. ثم أردف بصوت منكسر.. لقد تحملت من الأهوال مالا يصدقه عقل لأفوز بامرأة فى الحرام.. ثم سكت هنيهة كأنما انتبه ثم غير الموضوع بسرعة قائلا : وجبات السحور كلها على حسابي.

بدأت العشر الأواخر وإيهاب الجن يقضى أغلب وقته فى المسجد مابين الصلاة وقراءة القرآن وصمت طويل مهيب.. كأنما كان تائهًا ووجد ضالته وراحة باله ومع كل ذلك لم

يجرؤ أحد من الاقتراب منه سواي.. في الليلة الثانية ناداني وسألني : لماذا يخاف مني الناس هكذا؟ لماذا هم جبناء لهذا الحد؟ لو اجتمعوا على مرة واحدة كنت توقفت عن شروري منذ زمن بعيد.. كل هؤلاء سيذهبون إلى الجحيم.. قلت مبتسمًا : قبل أن تدخلهم النار قم وصالحهم.. قال : أصالحهم؟ كيف؟ قلت : قم ووزع السحور مع الشباب.. ابتسم مستحسنًا الفكرة وقام من فوره وحمل السحور بيديه للناس وبدأ الجميع يتجاوبون معه ويشكرونه ويمازحونه وهذا يطلب منه خبزًا فيأتيه وهذا يريد المزيد فيأتيه.. أما هو فقد رأيت عليه وجهًا غير الذى كنت أعرفه قبلا.

فى ليلة الخامس والعشرين كنا نستمع لدرس الرقائق فى جوف الليل وتحدث الشيخ عن الآخرة وتطرق فى حديثه عن النار ويبدو أن الشيخ أطال فى الحديث عن العذاب.. فجأة بدا صوت الشيخ مترددًا وهو ينظر فى اتجاه واحد فالتفتنا إلى مكان نظره فوجدنا إيهاب منتصبًا واقفًا فى وسط المسجد وقد رماه بنظرة نارية أسكتت الشيخ ثم قال بصوته الجهورى : ألا تستحيي من الله نحن ضيوف فى بيته وتخوفنا منه.. أنا حضرت إلى بيته طامعًا فى رحمته وأنت تخوفني منه.. إلى أين أذهب؟ أنت شيخ أنت؟ من أين أتوا بك؟ قمت إليه مسرعًا فى محاولة لتهدئته.. فدفعني وواصل كلامه : تعرف تتكلم عن الجنة؟ فلم يرد عليه الشيخ مبهوتًا فصرخ فيه : تعرف؟ قال الشيخ فى

اضطراب باد : نعم أعرف.. قال إيهاب الجـن : فى رمـضان لاتحدثنا عن النار لاتخوف الناس هيا حدثنا عن الجنة... هيـا هيا.

فى الليلتين التاليتين بدا إيهاب الجن مـتغيرًا جـدًّا كأنـه مريض.. حاولت الاطمئنان عليه بسؤاله ولكنه لم يـزد علـى قول: الحمد لله أنا بخير.. كنت أشعر فى هاتين الليلـتين أنـه لايستطيع الوقوف كثيرًا وأنه يكابد ثقلا فى جسده حتى عندما كنت أصافحه أجد حرارة شديدة فى يديه.. حاولـت عـدة مرات أن أحثه على الجلوس فى الصلاة ولكنه لم يكن يـرد إلا بالصمت.

افتقدناه فى صباح السابع والعشرين فلم نره فى الوكالة و لم يأت فى الصلوات كلها سألت عنه العمال قالوا : لم يـأت و لم يتصل وبعد صلاة التراويح وقبل أن أقرر الاستئذان فى الذهاب إليه فى البيت كان أحد عماله يأتينى مسرعا يقـول : المعلـم مريض ويريد أن يراك الآن.

استقبلتنى والدته وقد غلبتها الدموع وهمـست لى قائلـة : إيهاب مريض جدًّا ولا يريد أن يراه طبيب أرجوك حـاول أن تقنعه.. أنا قلبى محروق عليه.. هدأتها وطمأنتها ودخلت إليه.. كان صامتًا شاردًا وقد غلب وجهه التعـب فبـدت عينـاه محمرتين.. ألقيت عليه السلام فابتسم ابتسامة واهنة وأشار إلىّ بالجلوس... ثم قال لى مباشرة : لم يعد لدى وقت طويـل فى

هذه الحياة وأنا أريد.. فقاطعته مستفهمًا : ماذا تعني؟ قـــال : أعني أنني سأموت في خلال وقت قصير جدًّا.. ولـــيس لـــديَّ وقت للأخذ ولا للرد.. نظرت إلى وجهه كأنني لم أســـتوعب مايقول فقال مواصلا حديثه : لقد ارتكبت في حياتي كوارث وأذنبت ذنوبًا كالجبال وحديث الشيخ عن النار هدني وأرعبني شعرت أن كل مافعلته من أول رمضان لاقيمة له أمام ذنـــوبي وهذا سبب صراخي في وجه الشيخ كأنني كنت أستنجد برحمة الله من عذابه.

وهنا تدفقت الدموع من عينيه وانـــسابت علـــى وجهـــه غزيرة.. وبدا لي ساعتها على صورته الحقيقـــة الـــتي غطاهـــا بإجرامه وشقاوته.. ربت على يديه قائلا : نعم كلنا نـــستغيث برحمة الله من عذابه وبرضاه من غضبه.. قال : تراه يتجـــاوز عما فعلت؟ قلت : على حسب ماتظن بربك سيعطيك.. قال: أعرف والله أنه كريم ولكني أخاف من ذنوبي.. قلت : حـــين تدخل بيت الله هل تشك في كرمه, قال : أستغفر الله.. قلت : كذلك حين تقبل عليه لاترجو إلا رحمته والله تعالى يـــستحي من عبده أن يقبل عليه بوجه فيلقاه بوجه آخـــر.. والله تعـــالى يقول :((قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الـــرحيم)).

هز رأسه مؤمنًا على كلامي.. ثم التفت إليّ قـائلا : اتـركني الآن.

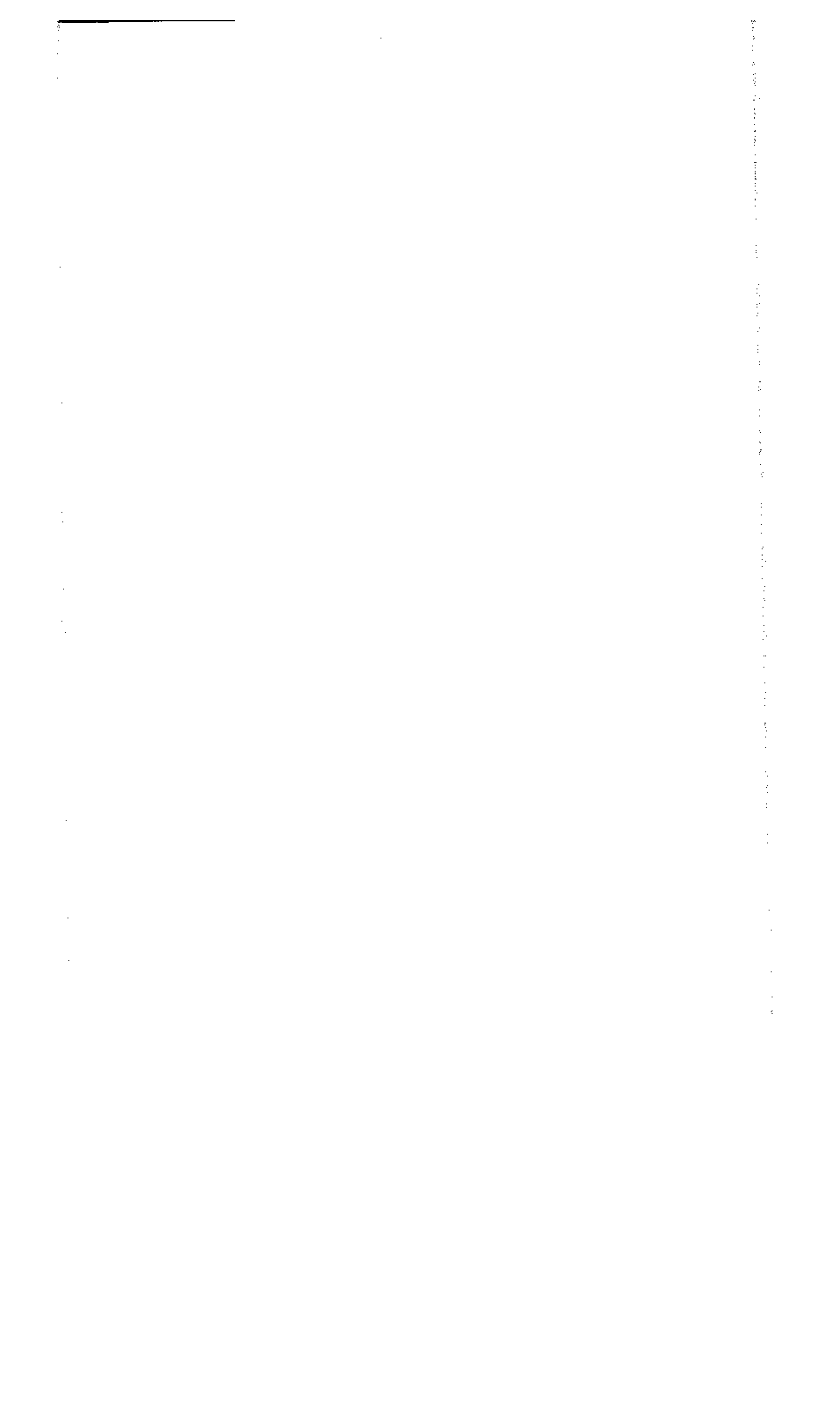
كل الصائمين ينتظرون يوم الجائزة صباح يوم عيد الفطر أما إيهاب فلم يطق صبرًا على الانتظار فقد سارع إلى ربه ليأخـذ جائزته عنده سبحانه وتعالى.. قالت لنا أمه : أنه صلى فجـر العيد في فراشه ولم يتوقف عن التكبير إلا حين سمـع الإمـام ينادى استقيموا إلى الصلاة.. فرفع عينيه إلى السـماء مـسلمًا روحه لخالقها.

دارت الأيام دورتها.. وأشرقت شموس وغربت.. وفرحـت ناس وحزنت.. وتجمعت وتفرقت.. وظل إيهاب الجن بحياتـه القصيرة علامة بارزة يتناقلها الناس, أما أنا فظللت أبحث عنـه كثيرًا كنت أشعر بوجوده في مكان ما.. حتى وجدته عـصر اليوم في المسجد.

اصطف الأشبال الصغار في المسجد للصلاة.. ووقف طفل في وسط الصف أطول وأعرض من كل الأطفال خاشعًا متبتلا فأعجبتني هيئته.. فاقتربت منه فوجدته يقول : نويت أصـلى ثلاث أو أربع ركعات حسب مايقول سيدنا الإمـام بجـوار هؤلاء الحمير.. ثم بتقعر واضح للحروف كبر تكبيرة الإحرام : (الله أكبر) فسرت أصوات ضحكات مكتومة وسط الأطفال فوضعت يدي على كتفه فالتفت إليّ بلا خـوف مبتـسمًا.. فابتسمت له قائلا : هل تعرف عمر بن الخطاب؟



ألـوان من الحـب



فراشة كلية الهندسة..

يا أعذب من كل حروف الحب..

وأرق من كل أوراق الورد..

أحبك..

نظرة عينيك تسرى فى مشاعرى فتحيل كل ألوان حيـــاتى إلى لون واحد..

لون حبك..

تدرين ما هو لون حبك؟

أغمضت عينىَّ فى محاولة لاستعادة ذلك الشعور الرفـــراف الذى كان يحلق بمشاعري هناك بعيـــدًا عنـــد أول نقطـــة فى استدارة القمر.. أحاول أن أقبض عليه.. أســـتعطفه.. لـــيملأ

كياني ويروى روحي.. لكن شيئًا ما انكسر بداخلي.. ومات.. شيء أشبه بالفجيعة حين تحل بقلوبنا.

علت الدهشة وجه أمي لحظات قليلة.. ثم ابتسمت ابتسامة قلقة.. لا شك أنك تمزحين.. بوجه جاد ضغطت على كلماتي حرفًا حرفًا حتى تخرج بوضوح شديد جدًّا.. أنا لا أمزح بالفعل أوافق على الزواج من هذا الرجل.. صرخت أمي فى وجهي صرخة مدوية كانت إيذانا ببدء معركة مريرة كنت أدافع فيها بكل ذرة فى كياني عن أيام عمري الضائعة.. و مشاعري المهزومة و أحلامي المصلوبة على جدار الانتظار.

ما الذى يغريني بالتطلع إليه من نافذة حجرتي كلما خرج منصرفًا من بيتنا.. ما الشيء المختلف فى هذا الرجل؟ أهو مشاهدة ما ستؤول إليه حياتي؟ لم يكن فى شكله ما يجذب أى فتاه إليه.. صلعة ظاهرة.. وكرش صغير مستدير يتدلى أمامه.. شارب خشن يعلو شفتين غليظتين تحيط به لحية مهملة.. حين اتصلنا بإحدى الشركات لإرسال مهندس لإصلاح الغسالة.. لا شيء لفت نظري إليه مطلقًا سوى مهارته فى التعامل مع الجهاز الذى يصلحه وسرعة بديهته فى اكتشاف العيب الذى أعيا حتى الشركة الصانعة.. وهذه لا تجعلني أبدًا أوافق على الزواج منه.. ولكني ببساطة وافقت.. بعد عدة زيارات لتفقد بعض الأدوات الكهربائية.. وحوارات قصيرة بيني وبينه.. تقدم خطوة واحدة فقط باتجاهي.. كسر بها الحاجز الضخم المقام

حولى.. كأنه جدار هش من فرط ضعفه تجاوزه بتلقائية مدهشة وبلا تردد قال مبتسمًا بعينيه العسليتين : أريد أن أتزوجك.

كل شيء يمكن أن يكون خارج تصور الحدوث هو ببساطة شديدة جدًّا يمكن أن يكون هو الحقيقة الواقعة التي يمكن أن نغفل عنها كثيرًا.. نعم تلك بديهتي التي تركتها الحياة لى جرحًا مدويًا فى أعماقي حين كتبت الحياة فى صفحة أيامي أن المستحيل هو الحقيقة الواقعة.

لماذا صباح الخير دائمًا منك مختلفة؟

لماذا صباحك دائمًا ندىٌ وحنون ومبهر؟

ماذا تفعلين له؟هل تتأملينه بعينيك الدافئتين؟

أم تتنسمه أنفاسك العاطرة كأنك ترسلينه قبلة؟

أم تخطينه بأناملك قصيدة شعر تكتبينها بقطرات الندى على أوراق الورد؟

ما أشهى صباح الخير حين تنطقها شفتاك! حين ترن فى أذنيَّ كل صباح سيمفونية عشق.

أحاول مرة ثانية وثالثة.. وعاشرة وللمرة المليون أن أسترد روحي من خلال كلماتك.. لم أستطع أبدًا.. أبحث فى أجزاء الرسالة عن حبي الضائع عن ذاتي.. بلا جدوى.

لم يكن ذلك كله بفعل حب جديد.. أو دخول رجـــل فى حياتى.. كما يحدث عادة فى الأفلام العربية.. ولكنه أبغــض شيء فى الوجود.. الانتظار.. شيء من الموت حـــل بروحــي أحالها إلى كيان مهترئ.. قلب لم يعد لديه القدرة على القبض على تلك اللحظات السعيدة التى نتمسك بها عادة فى مواجهـــة صعاب الحياة.. اكتشفت أننى فى لحظـــة واحـــدة فى حــرب ضروس مع الحياة بلا سلاح .. بلا ذرة قوة.. بلا رغبة أكيدة فى مواصلة الكفاح من أجل حب يعيش ويقتات على اليأس.

فراشة كلية الهندسة.. تتراءى لى منامي تلك الصور التى بت أكرهها فاستحالت لكوابيس بعدما كانت هـــي سمــر ليـــالي الانتظار.. لم تكن فتاة فى أرجاء الكلية بفصولها الأربـــع.. فى جمال عينيَّ السوداوين المشعتين بالدفء.. ولا استدارة البـــدر ليلة التمام على وجهي.. صورًا من الفتنة أحـــدثها اجتمـــاع الضدين بين بياض وجهى وسواد شعري المنسدل حوله كالليل حين يحتضن القمر.. فى قلوب الطلبة أبحر بشراع جمالي فى أنهار من حلو الكلمات.. حتى أصبحت فراشة كلية الهندسة الحلـــم الجميل لقلوب كثيرة تهفو لنظرة منى.. و لم يكن كذلك طالب أذكى ولا أروع منه فى كل رجال الكون.. الطالـــب المثـــالي والمتفوق والرياضي.. حين التقينا لم نستطع أن نقـــاوم ذلـــك الشعور الجميل.. الذى يقع أول ما يقع فى القلوب.. عنـــدما تلاقت عينانا فى تلك اللحظة السحرية التى تسمى مجازًا بالحب

عرفت أن شيئًا ما كنت أفتقده فى حيــاتى كلــها ووجــدتها عنده.. حلقت فى عالم من الأحلام وردى السمات والملامح.. اطمأن قلبى لغدي الجميل المبتهج.. لم نفترق لحظة من يومهــا حتى تخرجنا وسافر بعيدًا على وعد منه بالعودة ووعــد مــنى بالانتظار.

فى مواجهة رجل.. حصد من حياته الماضية بنتين.. وخمسة وأربعين عامًا مثقلة بالوحدة.. حفر الترمل على ملامح وجهه حزنًا دفينًا.. ما الذى يغرى فراشة كلية الهندسة به.. وجهي فى المرآة مازال يحمل نفس ملامح الجمال برغم أننى تجاوزت الثالثة والثلاثين منذ أيام قليلة.. حين تأملت جمالي فى المرآة قبــضت على سؤال مر أمام عينى وتوقفت عنده.. ما قيمة أجمل قصيدة شعر لو لم تجد أحد يغنيها؟ هل لهذا السبب وافقــت عليــه؟ ربما.. لا أعرف.. لا أستطيع أن أحدد بالضبط أين يمكــن أن يكون الاتجاه الصحيح.. شيء ما يقودني إليه.

حين جلس إلىّ للمرة الأولى بعد خطبتنا بــدا لى مختلفًــا.. كان واضحًا وصريحًا وقويًا.. لم يحدثني عن جمالي.. وكأن كل كلمات الغزل قد انتهت عند شواطئ كلماته.. ولكنه حــدثني عن بناته والحنان الذى افتقدوه طويلا.. حدثني عن نفسه وعن احتياجه.. لم يسألني هل تستطيعين أم لا.. ولكنه بتأكيد مضن قال لى إنه يثق تماما أننى أستطيع فعلها.

كانت الزيارة الأولى للبيت الذى سيكون مستقري ثقيلة على أمى فلم تكن تتصور أننى سأقبل الحياة فى هـذا البيت الصغير والذى سيضمني أنا وهذا الرجل وابنتيه .. سايرتني أمى معتقدة أن كل خطوة سأخطوها فى هذا الاتجاه ستحمل لى من المفاجآت ما سيجعلني أتراجع.. لم تدرك أمى بعد أننى حتى أنا لا أدرك ولا أفهم ما الذى حدث لى لدرجة أن كل مفاجأة كانت تقابلني أقابلها بمزيد من الإصرار والعناد على المضي فى طريقي إلى نهايته.. حتى ذلك الموقف الصعب حين قابلت لأول مرة ابنتيه للتعرف عليهما.

المحاولة الوحيدة التى أفعلها كل ليلة فى محاولة لفهم هـذا الاندفاع نحو هذا البيت اليتيم هي تصفح رسائله وهداياه.. فى محاولة مني لأن أعطى لنفسي آخر فرصة لتغيير قراري.. محاولة الاستمساك بآخر أمل فى عودة الغائب رغم علمي الحقيقي أن مجرى حياته كله قد تغير ولكنى مازلت أحلم أن يعود إلى بنفس العينين المشعتين بالحياة والشباب والدفء ونزق العاشقين.. مازالت أوتار جيتاره تدندن بمشاعر من الحب.

مازال صوته الجميل يتردد فى مشاعرى وهو يغنى.. كامل الأوصاف.. جفنه علم الغزل.. تخليت عن كل طموحاتي من أجله حتى بت أرضى بأن أكون له زوجة ثانية.. فقط يعود لى.. فشلت كل محاولاتي فى القبض على ذلك الشعور الطاغي بحبه.. لم يعد لدى مشاعرى القوة على الاستمساك بشيء

منه.. ومن ثم كان الطريق الجديد الذى تهيأ لى قد استعد تماماً لاستقبال رحلتي فيه.. فى تلك الليلة ودون أن أدرى وجدتني أمزق إحدى رسائله.

الصغيرة لم تتجاوز الثامنة بعد.. ذات ضفيرتين ووجه يتيم مبتسم لم تتردد فى القدوم إليّ وتقبيلي كانت رسالتها واضحة.. الكبرى.. فتاه تقف على أعتاب المراهقة.. كل شيء فيها يقف فى منطقة بين بين.. جسدها يستعد لرحلة التحول الكبرى.. وجهها ما بين الابتسام والحزن.. على شفتيها كلمة ما تريد أن تنطق بها فتختلج همس غير مسموع.. يعلو وجهها شحوب وحزن دفين مؤلم.. كانت تتطلع إليّ بعينين حائرتين متسائلتين.. كيف ستكون رسالتي لها؟

هكذا بدأت حياتى الجديدة.. أسرة صغيرة تعيش فى رحلة طويلة من الأحزان بعد فقد الأم.. كان على أن أضيء جوانبها بالفرح.. فى الماضي كان الكل يتسابق ليرضيني.. وأنا هنا فى سباق مع الأحزان لأرسم فوق الوجوه البريئة الابتسام لأعمر قلوبهم الغضة بالأمان.. بدأت أشعر أن لحياتي كياناً ومعنى كلما نجحت فى مهمتي.. البنت الصغرى ألقت بنفسها بين يديّ بلا تردد .. كان احتياجها لى فوق كل تصور حتى أنها ليالي كثيرة لا تنام إلا فى حضني مصرة على سماع أقصوصة قبل النوم.. الكبرى.. بين النظر لى كزوجة أب احتلت مكان أمها

وبين احتياجها الشديد لى فى هذه المرحلة... مترددة كعادهّا.. تقربت إليها بكل ود وحنان.. تحملت صمتها وترددها وردود فعلها العنيفة غير المبررة فى بعض الأحيان حتى جاء اليوم الـــتى لجأت لى فيه تبكى بلهفة وجزع.. فقد بدأت دورة جديدة فى حياة الأنثى أذنت بإنهاء حالة التردد نحوى وبداية صداقة جميلة بيننا وجدت لدىَّ فيها كل رعاية وحنان وإجابة علـــى كـــل أسئلتها.. وبرغم ذلك لم تستطع أبدًا أن تناديني ماما.

لم يكن زوجى يشبه فتى أحلامي فى شيء على الإطلاق.. ولا يشبه حتى فتى أحلام أى فتاة.. كنت أشعر أن الحياة تخرج لى لسانها وهى تقدمه لى فلجأت أنا لمعاندهّا بـــالزواج منـــه.. على الرغم من تحسن هيئته بشكل واضح نتيجة اعتنائي بـــه.. فقد اهتممت بشاربه الكث وذقنه فتحسنت ملامحـــه قلـــيلا.. كذلك اهتممت بملابسه بصورة كبيرة.. ألغيت التدخين مـــن حياته نهائيًا.. والقهوة و الشاي فى حدود قليلة.. إلا أن صلعته وكرشه الصغير بدا أنهما من تضاريس الكون الـــتى يـــصعب تغييرها.. على الرغم أنه لا شيء يغرى امرأة مثلي بقبول شكله الخارجي إلا أن قدرًا هائلا من الرجولة والـــشهامة والحنـــان كانت كفيلة بأن تدارى كل عيب تراه عينياي فيه.. فقد كان ودودًا حنونًا جدًا معى يتحول إلى طفل ثالث فى البيت يستسلم لى تمامًا لا يعترض على شيء من تعليماتي بل علـــى العكـــس كنت ألمح قدرًا من السعادة لهذا الاهتمام.. كان زوجي متلهفًا

على الإنجاب.. يشعر أن الجنين الذى سيتحرك فى أحشائي يومًا ما هو الوثيقة النهائية لوجودي فى حياقم إلى الأبد.. هي صك الأمان لهذا التحول الجميل فى حياة الثلاثة.. لكن شيئًا ما يحول بينى وبين ذلك.

فى مفاجأة خارج حدود تصوري عرفت اليوم أنه عـــاد.. وأنه يريد أن يراني.. مفاجأة لم تخطر على بالى أبدًا.. طرت إلى بيتنا لم ألتفت لأحد و لم أنظر حتى لأمي.. دخلــت حجــرتي وأخرجت صندوق رسائله الذهبي.. فتحت رسائله وصــرت أضمها وأقبلها.. شيء ما مس عقلي شعرت أنني كالمجنونــة.. ضحكت وبكيت فى ذات اللحظة صرت أهذى بكلمـــات لا معنى لها ولا معالم.. تفجرت بداخلي كل مشاعري المكبوتة.. جاء حبيبي.. عاد لى.. حلقت الفراشة بداخلى وكـــأنني ابنـــة العشرين.. نسيت كل شيء فى حياتى.. خلت الحياة كلها فلم أعد أرى سواه.. وقفت علـــى أطـــراف قـــدميَّ وشـــددت جسدي.. ورفعت يدي فى الهواء بحركة راقصة.. كـــل دروس البالية استعدها فى حركات رشيقة سابحة فى الهواء.. تدفق نهـــر الحب مرة أخرى.. ورحت أدور وأدور محلقة وراء أمنيتى التى انتظرها سنوات الجمر من عمري.. درت ودار كل شيء حولي متسارعًا.. حتى سقطت مغشيًا عليَّ.

تحلق الجميع حولى فى دائرة بدت لى متماسكة كأنها حلقـــة واحدة عندما بدأت مساحات الرؤية أمام عينيَّ فى التمدد.. ثم

بدأت الصور تتضح شيئًا فشيئًا.. أمي.. مسكينة تلك المرأة مع ابنتها الوحيدة المدللة.. ابتسمت لها ابتسامة اعتذار فقد كنت مشكلتها الكبرى طول عمري لم تقدر عليّ خاصة بعد رحيل والدي.. كم أتمنى الآن أن أقبل قدميك معتذرة .

البنت الصغرى بابتسامتها اليتيمة التى قابلتني بها أول مرة أضافت إليها رجاء يبكى الحجر.. أما الكبرى فقد عاد لوجهها ذلك الشكل الذى قابلتني به أول مرة.. كلمة على شفتيها تمهم بها لا أتبين معناها.. شجعت ابتسامتي الصغرى على الاقتراب مني وتقبيلي قالت : أحضرت لك هدية.. وفتحت ورقة كبيرة مرسومًا فيها أربعة قلوب.. قلب أخضر كبير مكتوب عليه بابا وقلب أصغر بجواره لونه وردى مبهج مكتوب عليه أنا.. وثالث بلون البنفسج الحزين كتبت عليه أختي وقلب كبير رابع قالت هذا قلبك لم أعرف أى لون أختاره لك.. فتركت لك اختيار اللون.. ابتسمت بوهن والتفت إلى الكبرى مشجعة لها على الاقتراب مني.. وقلت لها: ما رأيك؟ تعثرت الحروف على شفتيها وهي تحاول التماسك.. شجعتها ابتسامتي فقالت بقدر من التردد وقد اختلجت شفتاها واختنقت بالبكاء : بالأمس دعوت الله وتضرعت له قائلة : يا رب, لم أستطع أن أناديها ماما من حبي لأمي الراحلة.. ولكني سأدعوها منذ اللحظة ماما بشرط أن تبقيها لنا فنحن نحتاجها جدًا.. ثم صرخت باكية أرجوك لا تموتي.. لا تموتي.. وارتمت

فى حضني تضمني اليها بقوة.. وفى غمرة لحظات الشجن الثقيلة دخل زوجى فجأة وهو يكاد يقفز فى الهواء من الفرح.. صارخًا أنت حامل.. حامل.. و.. أغمى على مرة أخرى.

لم أشعر أبدًا فى حياتى بمثل هذا الشعور وأنا أتحسس بطني.. أتلمس ذلك القادم من سفره البعيد.. كم سيطول انتظاري حتى تأتى؟ سأنتظرك بكل كياني وبكل ذرة حب قادرة على أن أمنحها للدنيا.. سأقبض بقوة على كل حنان الدنيا لأمنحه لك.. كيف أحمل فى قلبى كل هذا الحب.. من أين ينبع هذا النهر العذب الذى يرتوي منه الجميع.. لم أشعر بهذا المذاق الفريد الرائع للاهتمام من قبل.. هذا الرجل الذى ساقته لى الأيام يومًا فى اللحظة التى ظننت أنى غير قادرة على ذرة عطاء لأحد وتزوجته.. كيف أحبه الآن كل هذا الحب.. لماذا أراه اليوم وسيمًا وجذابًا.

البنت الصغرى كأنها ولدت منى.. أقبل يديها الصغيرتين حين تأتيني وقد صنعت شيئًا للمولود الذي تنتظره بلهفة.. الكبرى صارت أقرب صديقة لى.. تأتمنني على أسرارها وأحلامها.. عادت يدي تربت على بطني.. وذلك القادم الذى ينتظره الجميع بلهفة.. متى سيأتي؟

كنت أستعد للعودة لبيتي وأعد حاجياتي حين دخلت أمى عليَّ.. اقتربت منى كان فى يديها الصندوق الذهبي.. قالت

بقدر قليل من التردد : عندما أغمى عليك فى المرة الأولى كان هذا الصندوق بين يديك.. وقد احتفظت به حتى تتعافى.. ثم مدت يدها لى به.. الآن تذكرت.. كيف نسيت هذا الأمر طوال فترة مرضى.. تناولته منها.. ثم جلست على مكتبي ووضعته أمامى.. أغمضت عينيَّ فى محاولة لأن أحظى بقدر من التوازن ثم التفت كانت أمى مازالت واقفة.. وعلى عينيها سؤال تنتظر إجابته.. ابتسمت لها.. ثم فتحت الصندوق وتناولت الرسائل.. رسالة.. رسالة.. وبدأت فى تمزيقها.

الفهرس